www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الدكتور
حسن إسماعيل عبد الرازق
أستاذ البلاغة المساعد
بكلية اللغة العربية بالزقازيق

خصائص النظم

في "خصائص العربية"
لأبي الفتح عثمان بن جني
المتوفى سنة ٣٩٢ هـ

الطبعة الأولى
١٤٠٧ هـ — ١٩٨٧ م

دار الطباعة المحمدية
٢٠ درب الأتراك بالأزهر - القاهرة

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الدكتور
حسن إسماعيل عبد الرازق
أستاذ البلاغة المساعد
بكلية اللغة العربية بالزقازيق

خصائص النظم

في "خصائص العربية"
لأبي الفتح عثمان بن جني
المتوفى سنة ٣٩٢ هـ

الطبعة الأولى
١٩٨٧ م — ١٤٠٧ هـ

دار الطباعة المحمدية
٣٠ شارع الأشراف بالأزهر - القاهرة

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد النبي الأمي ، وعلى آله وأصحابه التابعين ، وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعـــد :

فإن كتاب « الخصائص » ، أو خصائص العربية ، لأبي الفتح عثمان بن جني المتوفى سنة ٣٩٢ هـ ، من المصادر الهامة للغة العربية ؛ فكما أنه محل أهتمام النحويين ، واللغويين ، فإنه يجب أن يكون موضع اهتمام البلاغيين والمتأدبين .

فليس ما تضمنه هذا الكتاب القيم خاصا بعلم النحو ، أو علم التصريف ، أو علم أصول اللغة وفقهها ؛ بل إنه ليتجاوز هذا الحد . إلى أن يكون معينا ، لا ينضب من خصائص النظم . أو القيم البلاغية التي أفصح عنها ابن جني ، والتي يمكن أن يفصح عنها أولو الألباب من البلاغيين ؛ من خلال مناقشاته المفيدة ، لأساليب الفصحى ؛ من أشعار القدماء ، والمحدثين ، ومن أقوالهم المأثورة ، لاستنباط العلل النحوية ، أو التصريفية : أو لإقامة الدليل على صحة القضايا ، اللغوية ، أو النحوية ، أو النقدية ، أو التعبيرية .

وليس هذا تقديرنا نحن فحسب ، بل إن ابن جني نفسه ليفصح عن هذا المعنى الذي نقدره ، إذ يقول : « فإن هذا الكتاب ليس مبنيا على حديث وجوه الإعراب ؛ وإنما هو مقام القول على أوائل أصول هذا الكلام ، وكيف بدء ، وإلام نحى ؛ وهو كتاب يتسام فيه ذوو النظر من المتكلمين ،

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

والفقهاء ، والمتفلسفين . والنحاة، والكتاب ، والمتأدبين التأمل له ، والبحث عن مستودعه ، فقد وجب أن يخاطب كل إنسان منهم بما يعتاده ، ويأنس به ، ليكون له سهم منه ، وحصة فيه »(١) .

فهو إذن كتاب يخاطب كل إنسان بما اعتاده ، وألفه من حجج كلامية، أو فقهية أو فلسفية ، أو نحوية ، أو بلاغية .

ومما أورده من الحجج البلاغية : قوله : «من ذلك (أو) ، إنما أصل وضعها: أن تكون لأحد الشيئين، أين كانت، وكيف تصرفت ، فهي عندنا على ذلك، وإن كان بعضهم قد خفي عليه هذا من حالها، في بعض الأحوال، حتى دعاه إلى نقلها عن أصل بابها ، وذلك أن الفراء ، قال : إنها تأتي بمعنى (بل) وأنشد بيت ذي الرمة :

بدت مثل قرن الشمس في رونق الضحى
وصورتها ، أو أنت في العين أملح

وقال : معناه : بل أنت في العين أملح ، وإذا أردنا أنها في موضعها ، وعلى بابها ، بل إذا كانت هنا على بابها كانت أحسن معنى وأعلى مذهبا، فقد وفينا ما علينا، وذلك أنها على بابها من الشك — لأنه إذا قطع بيقين: أنها في العين أملح كان في ذلك صرف منه ، ودعاه إلى التهمة في الإفراط . وإذا أخرج الكلام مخرج الشك ، كان في صورة المقتصد غير المتحامل ، ولا المتعجرف، فكان أعذب للفظة ، وأقرب إلى تقبل قوله ، ألا تراه نفسه قال :

أبا طبية الوعساء بين جلاجل
وبين النقا ، آأنت أم أم سالم ؟!

(١) الخصائص ١/٦٧

فكما لا يشك في أن كلامه ههنا خرج مخرج الشك ، لما في قوله ، من عذوبته ، وظرف مذهبه فكذلك ينبغي أن يكون قوله : (أو أنت في العين أملح)(أو) فيه باقية في موضعها، وعلى شكها »(١) .

على أن ابن جني قد نبه البلاغيين ، إلى أن فائدة هذا الكتاب ، ليست قاصرة على معرفة قواعد النحو ، وأحكامها ؛ من رفع ، أو نصب ، أو جر، أو جزم، لأن هذه أمور، قد تقررت وعرفت، وانتهى من أمرها المتقدمون، من النحاة، وأصبح الحديث عنها ضربا من التكرار ، الذي لا يأتي بفائدة ما وإنما تتعدى فائدته إلى إثارة المعاني من مكامنها ، وبيان أحوالها ، في أوضاعها، وأغراضها، ومقاصدها وبيان أثرها في نفوس سامعيها .

واستمع إليه وهو يتحدث — أيضا — عن فائدة كتابه ، وذلك حين يتحدث عن معنى : (طرائف الحديث)من قول مالك بن أسماء :

أذكر من جارتي ومجلسها
طرائفا من حديثها الحسن

فيقول : « وإنما أفضى بنا إليه ذرو ، من القول ، أحببنا استيفاءه ، تائقا به، وليكون هذا الكتاب ، ذاهبا في جهات النظر ، إذ ليس غرضنا فيه : الرفع ، والنصب ، والجر ، والجزم ، لأن هذا أمر قد قرع في أكثر الكتب المصنفة فيه منه ، وإنما هذا الكتاب مبني على إثارة معادن المعاني، وتقرير حال الأوضاع ، والمبادي ، وكيف سرت أحكامها ، في الأحناء والحواشي»(٢).

وإذا كانت « الخصائص » أو « خصائص العربية » — كما يفسرها

(١) الخصائص ٢/٤٥٩

(٢) الخصائص ١/٣٢

إهداء من شبكة الألوكة

بعض أولى الفضل من المحققين — كلمة عامة ، فإنها تشمل الخصائص اللغوية ، والنحوية . والتصريفية ، والبلاغية .

والخصائص البلاغية هى خصائص النظم التى أفصح عنها ابن جنى فى عديد من المواقف التى عرض لها وتحدث فيها حديث العالم بخفايا اللغة ، وأسرار التعبير فيها .

وإذا كانت البلاغة — وهى النظم عند عبد القاهر — تتبع معانى النحو فيما بين الكلم على حسب الأغراض التى يساق لها الكلام ، فلقد تتبع البلاغيون من أمثال عبد القاهر الجرجانى ، وابن سنان الخفاجى ، وابن الأثير ، والخطيب القزوينى ، معـــانى النحو التى أبان عنها ابن جنى ، فى « الخصائص » ، فكانت لهم معينا عذبا ، على منه القوم ونهلوا ، حتى نمت رياض البلاغة ، وأخضوضرت ، واستوت على سوقها ، وآتت أكلها ضعفين !

وعلى الرغم من أن كتاب « الخصائص » لابن جنى كان مورداً عذباً من موارد البلاغيين ، فإنهم لم يدرسوه دراسة بلاغية وافية ، بل إنهم أفادوا منه ما أفادوا ، وتركوه ، على أنه كتاب فى علم اللغة ، أو فى علم النحو والتصريف ، وكأنه لا يعنيهم إلا بمقدار ما أخذوا منه وأفادوا !

على أن من أخذ منه ، أو أفاد من البلاغيين ، لم يشر إليه إلا فى القليل النادر ، بل إن منهم من نقل أبواباً كاملة من الخصائص — كابن الأثير — دون أن يشير إلى المصدر الذى نقل عنه !

وإذا ما أشار إلى ابن جنى ، فلكى يوسعه نقداً وتجريحاً !

وقد نجد من العلماء ، وسط هذا النكران للجميل ، من كان يجل ابن

جنى ، ويثنى عليه فى كتبه وهو سعيد بأنه قد قرأ عليه ، وأخذ عنه ، وهو الشريف الرضى ، فقد أثنى عليه فى كتابيه : « تلخيص البيان فى مجازات القرآن » ، و « المجازات النبوية » أكثر من عشر مرات ، يقول فيها : « قال شيخنا » .

ومن ذلك قوله : « وكان شيخنا أبو الفتح عثمان بن جنى ، رحمه الله ، يقول : معنى قولهم فى القسم لعمر الله ما فعلت ذلك ، أو لأفعلن ذلك ، إنما يريدون به القسم بحياة يحيى الله بها ، لا بحياة يحيابها ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . . فكنت أستحسن هذا القول منه جداً ، وله نظائر كنت أسمعها منه عند قراءته عليه ، وكان ، عفا الله عنه ، كثير الإستنباط للخبايا ، والإستطلاع للخفايا »(١) .

ومن قوله ، أيضا ، فى حذف ما هو معلوم للمخاطبين : « وكان شيخنا أبو الفتح النحوى ، رحمه الله ، يسمى هذا الجنس شجاعة الفصاحة ، لأن الفصيح ، لا يكاد يستعمله ، إلا وفصاحته جرية الحنان ، غزيرة المواد »(٢) .

وهذا كله فإنى أقدمت على بحث « خصائص النظم » فى خصائص العربية ، لأبى الفتح عثمان بن جنى المتوفى سنة ٣٩٢ هـ ، متبعاً فى ذلك ما يلى :

---

(١) تلخيص البيان ١٢٢ ، وانظر صفحات ٧٤ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ٢١٣

(٢) المجازات النبوية ٣٦ ، وأنظر صفحات : ٥٩ ، ٩٧ ، ١٢٢ ، ١٦٤ ، ١٧١ ، ٢٥٥ ، ٢٨٣

إهداء من شبكة الألوكة

أولا : مهدت لهذا البحث بموجز عن أبي الفتح عثمان بن جنى تناول أصله ، ونشأته وصحبته لأبى على الفارسى ، وللمتنبى ، وحبه لشعر المتنبى ، وتقدير المتنبى له وأنبعث ذلك بذكر نماذج من شعره ، ثم بتاريخ ولادته ووفاته ، ثم تلاميذه ، وكتبه ثم وصفه لكتابه ثم ذكرت مواطن الإفصاح عن خصائص النظم فى كتاب الخصائص .

ثانياً : جمعت ماتفرق من خصائص النظم ، أو من مسائل البلاغة ، فى كتاب : الخصائص ووضعته تحت عناوين بلاغيه مناسبة ، لكل موضوع ، حتى يستطيع الإفادة منها باحث البلاغة فى سهولة ويسر ، وذلك لأن ابن جنى قد وضع تلك الخصائص — فى الأعم الأغلب — تحت عناوين لغوية ، وأحياناً تحت عناوين نحوية .

ثالثاً : نظمت ما جاء تحت تلك العناوين تنظيما بلاغياً مناسباً ، بحيث قسمت الفكرة الكلية إلى أفكار جزئية ، وأردفتها بالتحليلات البلاغية المناسبة .

رابعاً : بينت إفادة البلاغيين من كل موضوع ، من تلك الموضوعات ، التى أثارها ابن جنى ، فى كتاب « الخصائص » ، وأرجعت إليه كثيراً مما أخذ منه ، ولم ينسب إليه مبيناً مكان الأخذ منه ، وبخاصة ما وجدته من الخصائص فى دلائل الإعجاز ، وأسرار البلاغة لعبد القاهر ، أو فى المثل السائر ، لابن الأثير .

خامساً : رددت على ابن الأثير ، فى ما أثاره من اعتراضات على ابن جنى ما استطعت إلى ذلك سبيلا .

سادساً : أبديت رأيى فيما يمكن أن يكون للرأى فيه مجال .

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت ، وإليه أنيب ؟

حسن اسماعيل عبد الرازق

التمهيد :

(١) أبو الفتح عثمان بن جنى[1]

هو أبو الفتح عثمان بن جنى ، كان أبوه مملوكا رومياً ، وربما كان اسمه : (جنى) معربا عن لفظ يونانى ، هو (جنايس) ، فقد قال ابن ماكولا فى كتابه فى المؤتلف والمختلف ، وحكى لى إسماعيل بن المؤمل ، أن أبا الفتح ، كان يذكر أن أباه ، كان فاضلا ، بالرومية ، ويبدو من هذا : أن ابن جنى أراد تفسير اسم أبيه جنى الرومى ، وأن معناه فى العربية فاضل ، فاللفظ اليونانى (جنايس) ، معناه : كريم ، نبيل ، جيد التفكير عبقرى ، مخلص .

ومن هنا يبدو صدق تفسير ابن جنى لاسم أبيه[2] .

وفى نزهة الألباء لابن الأنبارى : أن أباه « جنى » كان مملوكا لسليمان ابن فهد الأزدى الموصلى[3] .

---

(١) ينظر فى ترجمة ابن جنى : التيمية ١/٧٧ ، ونزهة الألبـــاء لابن الأنبارى ٤٠٧ ، ٤٦٩ ، تاريخ بغداد للخطيب ١١/٣١١ ، ابن خلكان ٣٨٥ ، الإرشاد لياقوت ٥ : ١٥ — ٣٢ ، ودمية القصر للباخرزى ٩٧ ، شذرات الذهب لابن العماد ٣ : ١٤٠ ، النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى (هوتنبول) ص ٥٤٨ ، (دار الكتب ٤/٢٠٥ بغية الوعاة للسيوطى ٣١٢ ، ومرآة الجنان ١/٤٤٥ ، ومعجم الأدباء ١٢/٨١ ، وإنباه الرواة ٢/٣٣٥ ، وتاريخ أبى الفداء ٢/وفيات ٣٩٢ تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٢/٢٤٤ ، تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان ٣٠٣

(٢) الخصائص (المقدمة) ١/٨ (٣) نزهة الألباء ٢٣٠

إهداء من شبكة الألوكة

وقد كان سليمان بن فهد يكتب فى حداثته بين يدى أبى إسحاق، الصابى، الذى توفى سنة ٣٨٤ هـ. ثم انتقل إلى الموصل، فأقتنى بها ضياعا، ونظر فيها، لقرواش أمير بنى عقيل، وهو، معتمد الدولة، أبو المنيع، قرواش بن المقلد أحد أمراء العقيليين. وقد ولى الموصل سنة ٣٩١، إلى سنة ٤٤٢ هـ.

ثم غضب عليه قرواش، فقتله سنة ٤١١ هـ.

ومما يدلك على أن سليمان بن فهد صاحب قرواش هو مولى (جنى) أن ابن الزملدم الذى هجا ابن جنى قد هجا سليمان بن فهد صاحب قرواش فى شعر، ذكره ابن الأثير، فى باب (التخلص. والإقتضاب).

يقول ابن الأثير، ومما استطرف من هذا النوع فى الشعر: قول ابن الزملدم الموصلى، وهو:

وليـــــل كوجه البرقعيدى مظلم
وبرد أغانيه، وطـــول قرونه
مربت ونومى فيـــه نوم مشرد
كعقل سليمان بن فهـــد ودينه
على أولق فيـــه النفات، كأنه
أبو جابر، فى خبطه وجنونه
إلى أن بداضوء الصباح، كأنه
سنا وجه قرواش وضوء جبينه

ثم يذكر ابن الأثير قصة هذه الأبيات فيقول: وهذه الأبيات لها حكاية. وذلك أن هذا الممدوح — وهو شرف الدولة قرواش —، ملك العرب، وكان صاحب الموصل، فاتفق أنه كان جالسا مع ندمائه فى ليلة من ليالى الشتاء، وفى جملتهم هؤلاء الذين هجاهم الشاعر،

وكان البرقعيدى، مغنيا، وسليمان بن فهد وزيرا، وأبو جابر حاجبا، فالتمس شرف الدولة من هذا الشاعر، أن يهجو المذكورين، ويمدحه فأنشد هذه الأبيات ارتجالا، وهى غريبة فى بابها، لم يسمع بمثلها، ولم يرض قائلها بصناعة التخلص وحدها، حتى رقى فى معانيه المقصودة إلى أعلى منزلة.

فابتدأ البيت الأول بهجو البرقعيدى، فجاء فى ضمن مراده ذكر أوصاف ليل الشتاء جميعها، وهى الظلمة والبرد والطول، ثم إن هذه الأوصاف الثلاثة جاءت ملائمة لما شبهت به مطابقة له وكذلك البيت الثانى والثالث.

ثم خرج إلى المدح بألطف وجه، وأدق صنعة، وهذا يسمى الاستطراد وما سمعت فى هذا الباب بأحسن من هذه الأبيات(١)

كما أنك تجد تلك الأبيات فى الكامل، لابن الأثير، وهى — أيضا — فى قرواش، وابن فهد، والبرقعيدى، وأبى جابر، كما تجدها فى معجم الأدباء، وأن الأبيات فى هجاء سليمان بن فهد، الموصلى، ومدح قرواش ابن المقلد، أمير بنى عقيل مع تغيير يسير.

ولما لم يكن ابن جنى منتسبا إلى أصل عربى، فقد أحس بأن عليه أن يعوض هذا النقص(٢). فانكب على العلم يرتوى من معينه، ويأخذ بأسبابه حتى علت مكانته، وعظم قدره، مما جعل الثعالبى يقول: هو القطب فى لسان العرب، وإليه انتهت الرياسة فى الأدب. وكان الشعر أقل خلاله(٣) لعظم قدره، وارتفاع حاله.

ولهذا يقول ابن جنى من قصيدة طويلة(٤)

---

(١) المثل السائر ٢٨٠
(٢) معجم الأدباء ١٢/١١٥
(٣) يتيمة الدهر ١/١٠٨
(٤) نزهة الألباب ٢٢٠

إهداء من شبكة الألوكة

فإن أصبح بلا نسب فعلمي في الورى نسبي
على أني أؤول إلى قروم ، سادة نجب
قياصرة إذا نطقوا أرم الدهر ، ذو الخطب
أولاك دعا النبي لهم كفى شرفا دعاء فيي

وقد نشأ ابن جني بالموصل ، وتعلم النحو بها ، وممن أخذ عنهم في النحو أحمد بن محمد الموصلي الشافعي المعروف بالأخفش ، وقرأ الأدب في صباه على أبي علي الفارسي وصحبه أربعين عاما ، وكان سبب صحبته لأبي علي أن أبا علي قد سافر إلى الموصل ، فدخل إلى الجامع ، فوجد أبا الفتح عثمان ابن جني يقرأ النحو وهو شاب ، وكان بين يديه متعلم ، وهو يكلمه في قلب الواو ألفا نحو : قام ، وقال ، فاعترض عليه أبو علي فوجده مقصرا ، فقال له أبو علي : زيبت قبل أن تحصرم ، ثم قام أبو علي ولم يعرفه ابن جني ، وسأل عنه فقيل له : هو أبو علي الفارسي النحوي ، فأخذ في طلبه فوجده ينزل إلى السميريه ، يقصد بغداد فنزل معه في الحال ولزمه وصاحبه من حينئذ إلى أن مات أبو علي ، وخلفه ابن جني ، ودرس النحو ببغداد ، وأخذ عنه .

وكان تبحر ابن جني في علم التصريف ، لأن السبب في صحبته لأبي علي ، وتغربه عن وطنه ، ومفارقة أهله ، مسألة تصريفية(١)

ويبدو أن ذلك اللقاء كان في سنة ٣٢٧ هـ وهي السنة التي أغار فيها معز الدولة بن بويه على الموصل ، ولعل أبا علي الفارسي كان في ركبه في تلك الغزوة

(١) نزهة الألباء ٢٢٢
(٢) تاريخ الأمم الإسلامية ٣٨٣

كما أخذ ابن جني بعد ذلك عن كثير من رواة اللغة والأدب كأبي بكر محمد بن الحسن المعروف بابن مقسم ، وهو من القراء وكان راوية ثعلب ، وقد روى ابن جني عنه أخبار ثعلب وعلله ، وأبو الفرج الأصفهاني صاحب الأغاني المتوفى ٣٥٦ هـ وأبي بكر محمد بن هرون الروياني عن أبي حاتم السجستاني ، ومحمد بن سلمة عن أبي العباس المبرد .

ومن أخذ عنهم من الأعراب ، ممن لم تفسد لغتهم : أبو عبد الله محمد بن العساف العقيلي التميمي .

وقد كانت له رحلات في طلب العلم ، يدل عليها ما يقوله في إجازة أثبتها ياقوت في ترجمته « وماصح عنده — أيده الله — من جميع رواياتي ، عما سمعته من شيوخي — رحمهم الله ، وقرأته عليهم بالعراق ، والموصل ، والشام ، وغير هذه البلاد التي أتيتها ، وأقمت بها ،

ومن رواياته التي انتفع بها ابن منظور ، ماقاله ابن جني أخبرنا أبو صالح السليل ، بن أحمد بن عيسى بن الشيخ ، قال :

حدثنا عبد الله محمد بن العباس اليزيدي ، قال : حدثنا الخليل بن أسد النوشجاني ، قال : حدثنا محمد بن يزيد بن رياش ، قال أخبرني رجل عن حماد الراوية ، قال : أمر النعمان ، فنسخت له أشعار العرب في الطنوج — قال : وهي الكراريس ، — ثم دفنها في قصره الأبيض ، فلما كان المختار ابن عبيد ، قيل له : إن تحت القصر كنزا ، فاحتفره ، فأخرج تلك الأشعار فمن ثم أهل الكوفة أعلم بالشعر من أهل البصرة(١)

(١) لسان العرب مادة (طنج)

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

لقاؤه بالمتنبي :

كان ابن جنى محباً لشعر أبى الطيب المتنبى ، إذهو يستشهد به كثيراً فى خصائصه ، على المعانى والأغراض ؛ فقد التقى به ، فى حلب عند سيف الدولة الحمدانى ، وفى شيراز عند عضد الدلة بن بويه .

وقد قرأ ابن جنى على المتنبى ديوانه ؛ يقول البديعى : قال أبو الفتح ابن جنى : كنت قد قرأت ديوان المتنبى عليه ، فلما وصلت إلى قوله :

أغالب فيك الشوق والشوق أغلب
وأعجب من ذا الهجر ، والوصل أعجب

وقوله :

وأخلاق كافور إذا شئت مدحه
وإن لم أشأ نملى على وأكتب

إذا ترك الإنسان أهلا ورامه
ويمم كافوراً فما يتغرب !

فقلت له : يعز على أن يكون هذا الشعر ، فى ممدوح غير سيف الدولة ، فقال حذرناه ، وأنذرناه ؛ فما نفع فيه الحذر ، ألست القائل فيه :

أخا الجود : أعط الناس ماأنت مالك
ولا تعطين الناس مالك قاتل ؟

فهو الذى أعطانى لكافور بسوء تدبيره ، وقلة تمييزه(١)

وواضح أن قراءة ابن جنى على المتنبى ديوانه كانت بعد هروبه من مصر ومجائه لكافور .

ويورد البديعى قصة تدل على إعجاب ابن جنى بشعر المتنبى فيقول :

(١) الصبح المنبى ١٠٠

كان أبو على الفارسى بشيراز ، وكان مر المتنبى إلى دار عضد الدولة على دار أبى على الفارس ، وكان إذا مر به أبو الطيب يستثقله على قبح زيه ، وما يأخذ به نفسه من الكبرياء ؛ وكان لابن جنى هوى فى أبى الطيب ، كثير الإعجاب بشعره ، لا يبالى بأحد يذمه ، أو يحط منه ، وكان يسوؤه إطناب أبى على فى ذمه ؛ واتفق أن قال أبو على يوماً : أذكروا لنا بيتاً من الشعر نبحث فيه ؛ فبدأ ابن جنى وأنشد :

حلت دون المزار ؛ فاليوم لوزر
ت لحال النحول دون العناق

فاستحسنه أبو على ، واستعاده ، وقال : لمن هذا البيت ؟ فإنه غريب المعنى ؛ فقال ابن جنى للذى يقول :

أزورهم ، وسواد الليل يشفع لى
وأنثنى ، وبياض الصبح يغرى بى

فقال : والله هذا حسن ، بديع جداً ؛ فلمن هذا ؟ قال للذى يقول :

أمضى إرادته ، فسوف له قد
واستقرب الأقصى ، فثم له هنا

فكثر إعجاب أبى على ، واستغرب معناه ، وقال : لمن هذا ؟ فقال ابن جنى : للذى يقول :

ووضع الندى فى موضع السيف بالعلا
مضر كوضع السيف فى موضع الندى

فقال : وهذا حسن والله ؛ وقد أطلت يا أبا الفتح ؛ فأخبرنا من القائل ؟

قال : هو الذى لا يزال الشيخ يستثقله ، ويستقبح زيه ، وفعله ،

إهداء من شبكة الألوكة

وما علينا من القشور إذا استقام اللب؟ قال أبو علي : أظنك تعني المتنبي؟ قلت : نعم ، قال : والله لقد حببته إلي ، ونهض ، ودخل على عضد الدولة فأطال في الثناء على أبي الطيب ، ولما احتاز به استنزله ، واستنشده ، وكتب عنه أبياناً من الشعر(١) .

قوله عن المتنبي : شاعرنا :

يقول ابن جني — وهو يتحدث عن صحة الطبع العربي ، وصفائه ، ولطفه : وحدثني المتنبي شاعرنا — وما عرفته إلا صافاً — قال : كنت عند منصرفي من مصر في جماعة من العرب ، وأحدهم يتحدث . فذكر في كلامه فلاة واسعة ، فقال : يحير فيها الطرف ، قال : وآخر منهم يلفنه سراً من الجماعة بينه وبينه فيقول له : يحار ، يحار ، أفلا ترى إلى هداية بعضهم لبعض وتنبيهه إلى الصواب ؟(٢) .

وفي موضع آخر من الخصائص يقول : وذاكرت المتنبي شاعرنا نحواً من هذا ، وطالبته في شيء من شعره(٣) .

ويقول في باب التراجع عند التناهي : « وأبلغ من هذا قول شاعرنا(٤) .

وجدت حتى كدت تبخل حائلا للمتنى ؛ ومن السرور بكاء

(١) الصبح المنبي ١٦٢
(٢) الخصائص ١/٢٣٩
(٣) « ٢/٤٠٣
(٤) « ٣/٢٤١

تقدير المتنبي لابن جني :

كان المتنبي يعرف قدر ابن جني ، ويجله ، ويقول عنه : هذا رجل لا يعرف قدره كثير من الناس ، وكان إذا سئل عن شيء من دقائق النحو والتصريف في شعره ، يقول : سلوا صاحبنا أبا الفتح ، وكان إذا سئل عن معنى قاله ، أو توجيه إعراب ، حصل فيه إغراب ، دل عليه ، وقال : عليكم بالشيخ الأعور ، ابن جني فسلوه فإنه يقول ما أردت ، وما لم أرد(١) .

وفي هذه الرواية ما يدلك على تقدير المتنبي لابن جني ، وعلى سعة علمه وتبحره في اللغة العربية ، ومعرفته الواسعة بأساليبها ، وأحاطته بمذاهب العرب في استعمالها .

وقد يفهم من قول المتنبي : هذا رجل لا يعرف قدره كثير من الناس : أن ابن جني على سعة علمه ، واحترام أولي الفضل له ، واعترافهم بتقدمه ، قد كان كثير من الناس لا يعرف له هذا الفضل ، وربما كان عدم التقدير من هؤلاء راجعاً إلى أنهم كانوا ينفسون عليه مكانته التي وصل إليها بعلمه وفضله ، وساعدهم على هذا ، ما كان من طريقته وهو يتحدث ، فقد كان من عادته — كما يقول ياقوت — أن يميل بشفتيه ، وقد كان هذا موضع تندر من بعض الكتاب في ديوان آل بويه في بغداد بأبي الفتح ؛ فقد أبصره ، وهو يتحدث ، ويفعل ما تعوده مما ذكرت فأثار فيه الكاتب النظر ، فسأله أبو الفتح في ذلك فقال : شبهت مولاي الشيخ وهو يتحدث ويقول بيوزه كذا ، بقرد رأيته اليوم عند صعودي إلى دار المملكة وهو على شاطىء دجلة يفعل مثل ما يفعل مولاي الشيخ ، فامتعض أبو الفتح ،

(١) مسالك الأبصار ٤/٢٠٦

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وقال : ما هذا القول يا أبا الحسين — أعزك الله — : ومتى رأيتنى أمزح فتمزح معى أو أجن فتمجن بى ؟! فلما رآه أبو الحسين قد حرد، واستشاط وغضب قال : المعذرة أيها الشيخ إليك وإلى الله تعالى عن أن أشبهك بالقرد ، وإنما شبهت القرد بك ، فضحك أبو الفتح ، وقال : ما أحسن ما اعتذرت ! وعلم أبو الفتح أنها نادرة تشيع ، فكان يتحدث بها هو دائماً(١) .

نماذج من شعر :

يذكر الثعالبى أن الشعر كان أقل خلال ابن جنى لعظم قدره وإرتفاع حاله ، ويورد من قوله فى الغزل(٢) :

غـــزال غير وحشى حكى الوحشى مقلته
رآه الورد يجنى الورد فاستكساه حلتـــه
وشم بأنفـــه الريحا ن فاستهداه زهرته
وذاقت ريقه الصهبا ء فاختلسته نكهته

ومن شعره مايورده صاحب نزهة الألباء فى العتب على صديق له(٣) :

صـــــدودك عنى ولا ذنب لى
يدل على نيـــة فاســـــدة
وقد — وحياتك — مما بكيت
خشيت على عينى الواحـــدة

(١) معجم الأدباء (ترجمة أبى الفتح) .
(٢) يتيمة الدهر ١/١٠٨
(٣) نزهة الألباء ٢٢١

ولولا مخافـــة ألا أراك لما كان فى تركها فائدة

ويذكر البديعى أن أبا الفتح قد رثا أبا الطيب المتنبى بقصيدة مطلعها :

غاض القريض وأودت نضرة الأدب
وصوحت بعدرى دوحة الكتب

ومنها يقول :

سلبت ثوب بهاء كنت تلبسه كما تخطف بالخطية السلب
ما زلت تصحب فى الجلى إذا نزلت
قلباً جميعاً ، وعزماً غير منشعب
وقد حلبت لعمرى الدهر أشطره
تخطو بهمة لأوان ولا نصب
من للهواجل يحي ميت أرسمها
بكل حائلة التصدير والحقب ؟ !

ومنها :

باتت وسادى أطراب تؤرقنى لما غدوت لقى فى قبضة النوب
غمرت خدن المساعى غير مضطهد
ومت كالنصل لم يدنس ولم يعب
فاذهب عليك سلام الله ما قلقت
خوص الركائب بالأكوار والشعب(١)

(١) الصبح المنبى ١٧٧

إهداء من شبكة الألوكة

تاريخ ولادته وتاريخ وفاته :

لم يعين أحد ممن ترجم لابن جنى سنة ولادته ، ويكتفون بقولهم : إنه ولد قبل الثلاثين والثلاثمائة ، إلا أبا الفداء ، الذى يذكر أن ولادته كانت ٣٠٢ هـ ، ولكنهم يتفقون على سنة وفاته ، وهى سنة ٣٩٢ هـ .

وقد قالوا : إن ابن جنى قد صحب أستاذه أبا على الفارسى أربعين عاماً ، على أثر معرفته به فى مسجد الموصل . وقد كان ذلك فى سنة ٣٣٧ هـ .

وقد قال ابن قاضى شهبة — فى طبقات النحاة — إنه توفى وهو فى سن السبعين ومعنى هذا : أن ولادته كانت فى حوالى سنة ٣٢٢هـ

وإذا كانت ولادته فى هذه السنة ، فإن معرفته بأبى على الفارسى فى مسجد البصرة قد تمت وهو فى سن الخامسة عشرة ، وتروى قصة لقائه بأبى على : أن أبا على مر عليه ، وهو يدرس العربيـــة ، ومن القليل أن يتعرض المرء للتدريس فى هذه السن المبكرة ، وهذا يرجح رواية أبى الفداء فى تاريخ ولادته .

غير أن رواية لقائه بأبى على — وهى التى يذكرها ابن الأنبارى فى نزهة الألباء — ربما توحى لنا بأن ابن جنى — وهو يدرس العربية بمسجد البصرة — كان فى هذه السن المبكرة لأنها تقول ، وكان سبب صحبته إياه : أن أبا على الفارسى كان قد سافر إلى الموصل فدخل إلى الجامع فوجد أبا الفتح عثمان بن جنى ، يقرأ النحو ، وهو شاب ، وكان بين يديه متعلم وهو يكلمه ، فى قلب الواو ألفاً ، نحو قام ، وقال ، فاعترض عليه أبو على ، فوجده مقصراً ، فقال له : تزببت وأنت حصر(١) !

(١) الخصائص ١/ ١٠ من المقدمة ، وانظر نزهة الألباء ٢٠٨ (الطبعة الأولى) .

فقول أبى على : تزببت وأنت حصرم ، تدل على أن ابن جنى — وهو يدرس العربية فى مسجد الموصل — كان فى سن مبكرة .

وقد توفى ابن جنى فى يوم الجمعة لليلتين بقيتا من شهر صفر سنة اثنين وتسعين وثلاثمائة ، فى خلافة القادر(١) ، وتولى الصلاة عليه الشريف الرضى ، وكان بينهما صداقة وكيدة — كما فى ديوان الشريف الرضى — .

وقد رثاه الشريف الرضى بقصيدة ، منها :

ألا بالقوم ، للخطوب الطوارق ... وللعظم يرمى كل يوم بعارق
وللدهر يعرى جانبى من أقاربى ... ويقطع ما بينى وبين الأصادق
وللنفس قد طارت شعاعاً من الجوى
لفقد الصفايا ، وانقطاع العلائق
لها كل يوم موقف من مودع ... وملتفت فى عقب ماض مفارق
نجوم من الاخوان يرمى بها الردى
مغاربها فـــوت العيون الرواشق

ومنها :

لتبك أبا الفتح العيون بدمعها ... ولتبكه من بعدها بالمناطق
إذا هب من تلك الغليل بدامع ... تسرع من هذى الغرام بناطق
شقيق إذا التاث الشقيق وأعرضت
خلائق قومى جانباً عن خلائق

(١) نزهة الألباء ٢٢٢

إهداء من شبكة الألوكة

تلاميذه :

كان من تلاميذه : أبو القاسم عمر بن ثابت الثمانيني ، وأبو أحمد عبد السلام البصري ، وأبو الحسن علي بن عبد الله الشمسي ، وغيرهم(١).

ومن تلاميذه : الشريف الرضي ، الذي يكثر من ذكر شيخه أبي الفتح ويعتز بالأخذ عنه في كتابيه تلخيص البيان في مجازات القرآن ، « المجازات النبوية » ، كقوله :

« وكان شيخنا أبو الفتح عثمان بن جني — رحمه الله — يقول : معنى قولهم — في القسم — : لعمر الله ما فعلت ذلك ، إنما يريدون به القسم بحياة يحيي الله بها ، لا بحياة يحيا بها تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً ، فكنت أستحسن هذا القول منه جداً(٢) .

وكقوله : « وكان شيخنا أبو الفتح النحوي — رحمه الله — يسمي هذا الجنس شجاعة الفصاحة ، لأن الفصيح لا يكاد يستعمله إلا وفصاحته جرية الجنان ، غزيرة المواد»(٣) .

---

(١) نزهة الألباء ٢٢٢

(٢) تلخيص البيان ١٢١

(٣) المجازات النبوية ٣٦

كتب ابن جني :

١) كتاب سر الصناعة
٢) الخصائص
٣) التمام
٤) تفسير تصريف المازني
٥) شرح مستغلق أبيات الحماسة ، واشتقاق أسماء شعرائها
٦) شرح المقصور والممدود لابن السكيت
٧) تعاقب العربية
٨) تفسير ديوان المتنبي الكبير ، ويسمى : الفسر
٩) تفسير معاني ديوان المتنبي
١٠) اللمع في العربية
١١) كتاب مختصر التعريف
١٢) كتاب مختصر العروض والقوافي
١٣) كتاب الألفاظ المهموزة
١٤) كتاب المقتضب
١٥) تفسير المذكر والمؤنث ، ليعقوب
١٦) كتاب تأييد تذكرة أبي علي
١٧) المحاسن في العربية
١٨) النوادر الممتعة
١٩) الخاطريات
٢٠) كتاب المحتسب في شرح شواذ القراءات
٢١) تفسير أرجوزة أبي نواس
٢٢) تفسير العلويات
٢٣) كتاب البشرى والظفر
٢٤) رساله في مد الأصوات ومقادير المدات

إهداء من شبكة الألوكة

٢٥) كتاب المذكر والمؤنث
٢٦) كتاب المنتصف ، ولعله هو (المنصف) وحرف الامم
٢٧) كتاب مقدمات أبواب التصريف
٢٨) كتاب النقض على ابن وكيع فى شعر المتنبى وتخطئته
٢٩) المعرب فى شرح القوافى
٣٠) كتاب الفصل بين الكلام الخاص ، والكلام العام
٣١) كتاب الوقف والابتداء
٣٢) كتاب المعانى المحررة
٣٣) كتاب الفرق
٣٤) كتاب الفائق
٣٥) كتاب الخطيب
٣٦) كتاب الأراجيز
٣٧) كتاب ذى القد
٣٨) شرح الفصيح
٣٩) كتاب شرح الكافى فى القوافى
٤٠) التلقين فى النحو
٤١) التذكرة الاصبهانية
٤٢) التهذيب
٤٣) المهذب
٤٤) التبصرة
٤٥) كتاب الزجر
٤٦) مسألتان من كتاب الأيمان لمحمد بن الحسن الشيبانى
٤٧) علل التثنية
٤٨) المسائل الواسطية
٤٩) كتاب شرح الإبدال ، ليعقوب

(٢) الخصائص

يصف ابن جنى كتابه «الخصائص» ، ويبين بعض ظروفه ، وملابساته من خلال إهدائه إلى بهاء الدولة ، أبى نصر فيروز بن عضدالدولة بن بوية الذى تولى حكم العراق بعد وفاة أخيه شرف الدولة[1] ، فى سنة ٣٧٩ هـ . ونبض على الطائع الخليفة العباسى فى سنة ٣٨١ هـ .

ومن تلك الظروف والملابسات :

١ — أن أبا الفتح قد عكف دهرا طويلا ، على تصنيف هذا الكتاب ، معملا فكره ، ورأيه ، وروينه فى سبيل إخراجه على الوجه الذى يصبو إليه جودة ، واتقانا مع أن الوقت لم يسعفه لإعادة الإلمام بشوارده .

٢ — أنه من أشرف ما صنف فى علم العرب ، وأكثر ما استخدم فيه من القياس والنظر ، وأجمع أدلة على ما تضمنته اللغة العربية من خصائص الحكمة وعرفت به من علائق الاتقان والصنعة .

٣ — أنه لم يستطع أحد من الكوفيين ، أو من البصريين أن يلم به ، لامتناع جانبه على الفريقين ، فلم ير أحداً من علماء البلدين : البصرة والكوفة قد تعرض لعمل أصول النحو على مذهب أصول الكلام والفقه أما كتاب الأصول لأبى بكر بن السراج ، فإنه لم يلم بما ألم به ابن جنى فى الخصائص وأما أبو الحسن الأخفش سعيد بن مسعدة المتوفى سنة ٢١٠ هـ فقد صنف كتيبا إذا قورن بكتاب الخصائص علم أن أبا الفتح قد ناب عنه فيه وكفاه مئونة التعب به مكافأة منه على ما أولاه له من علومه التى سعد بها .

---

(١) تاريخ الأمم الإسلامية (الدولة العباسية) ٣٩٨ .

إهداء من شبكة الألوكة

٤ ـ أن الذى سأله تصنيف هذا الكتاب إنما هو بعض تلاميذه ممن آنس بصحبته وأرتضى حال أخذه عنه ، وأنه سأل فأطال المسألة وأكثر الحفاوة والملاينة حتى أجابه إلى طلبه .

ويحسن أن نستمع إلى أبى الفتح عثمان بن جنى يصف كتابه والخصائص، وهو يقدمه إلى بهاء الدولة، «هذا ـ أطال الله بقاء مولانا الملك السيد المنصور المؤيد ، بهاء الدولة ، وضياء الملة ، وغياث الأمة . وأدام ملكه ونصره ، وسلطانه ، ومجده ، وتأييده ، وسموه ، وكبت شانئه وعدوه ـ كتاب لم أزل على فارط الحال ، وتقادم الوقت ، ملاحظا له ، عاكف الفكر عليه ، منجذب الرأى ، والروية إليه ، وادا أن أجد مهملا ، أصله به ، أو خللا ، أرتقه بعمله ، والوقت يزداد بنواديه ضيقا ، ولا ينهج لى إلى الابتداء طريقا هذا مع إعظامى له ، واعصامى بالأسباب المتناطه به ، واعتقادى فيه ، أنه من أشرف ما صنف فى علم العرب وأذهبه فى طريق القياس والنظر ، وأعوده عليه بالحيطة والصون ، وآخذه له ، من حصة التوقير والأون ، وأجمعه للأدلة على ما أودعته هذه اللغة الشريفة : من خصائص الحكمة ، ونيطت به من علائق الاتقان والصنعة فكانت مسافر وجوهه ، ومحاسر أذرعه وسوقه ، تصف لى ما اشتملت عليه مشاعره ، وتحى إلى بما خيطت عليه من أقرابه وشواكله ، وترينى أن تعريد كل من الفريقين : البصريين ، والكوفيين عنه ، وتحاميهم طريق الإلمام به ، والخوض فى أدنى أوشاله وخلجه ، فضلا عن اقتحام غماره ولججه ، إنما كان لإمتناع جانبه ، وانتشار شعاعه ، وبادى تهاجر قوانينه وأوضاعه وذلك أنا لم نر أحداً من علماء البلدين تعرض لعمل أصول النحو على مذهب أصول الكلام والفقه . فأما كتاب أصول أبى بكر ، فلم يلم فيه بما نحن عليه إلا حرفا أو حرفين فى أوله ، وقد تعلق عليه به ، وسنقول فى معناه .

على أن أبا الحسن ، قد كان صنف فى شىء من المقاييس كتيبا ، إذا

أنت قرنته بكتابنا هذا علمت بذلك أنا نبنا عنه فيه ، وكفيناه كلفة التعب به ، وكافأناه على لطيف ما أولاناه من علومه المسوقة إلينا ، المفيضة ماء البشر والبشاشة علينا ، حتى دعا ذلك أقواما نزرت من معرفة حقائق هذا العلم حظوظهم ، وتأخرت عن إدراكه أقدامهم إلى الطعن عليه والقدح فى احتجاجاته وعلله ، وترى ذلك مشروحا فى الفصول بإذن الله .

ثم إن بعض من يعتادنى ، ويلم لقراءة هذا العلم لى ممن آنس بصحبته لى ، وأرتضى حال أخذه عنى ، سأل فأطال المسألة ، وأكثر الحفاوة والملاينة أن أمضى الرأى فى انشاء هذا الكتاب ، وأوليه طرفا من العناية والانصباب فجمعت بين ما أعتقده ، ومن وجوب ذلك على ، إلى ما أوثره من اجابة هذا السائل لى ، فبدأت به ، ووضعت يدى فيه ، واستعنت الله على عمله ، واستمددته ـ سبحانه ـ من ارشاده وتوفيقه ، وهو ـ عز اسمه ـ موتى ذلك بقدرته وطوله ومشيئته(١) .

---

(١) الخصائص ١/١ ، ٢ ، ٣ .

إهداء من شبكة الألوكة

(٣) مواطن الإفصاح عن خصائص النظم في «الخصائص»

لما كان كتاب ابن جني شاملا لخصائص العربية كلها، من خصائص لغوية، ونحوية، وصرفية، وبلاغية فقد جاءت خصائص النظم فيه في أنحاء متفرقة من الكتاب تبعا للمواقف، أو المواطن التي تتطلب الإفصاح عنها ويمكن أن نقتبسها فيما يلي:

١ — إقامة الدليل على صحة القضايا اللغوية:

ومن ذلك قضية الفرق بين الكلام، والقول: فقد أراد ابن جني أن يثبت أن الكلام إنما هو لفظ مستقل بنفسه مفيد لمعناه، فاستدل على ذلك بأن العرب قد وصفت كلامها تارة بالاطناب، وتارة بالإيجاز، وتارة ثالثة بغيرهما، وذلك لا يكون إلا بكلام تام مستقل بنفسه، وبهذا تعرض للإيجاز والاطناب وأورد قول ابن الرومي:

وحديثها السحر الحلال، لو انه
لم يجن قتل المسلم المتحرز
إن طال لم يملل وان هي أوجزت
ود المحدث أنها لم توجز
شرك القلوب، وفتنة ما مثلها
للمطمئن وعقلة للمتوفز

فذكر أنها تطيل تارة وتوجز أخرى، والإطالة والإيجاز جميعا إنما هما في كل كلام، مفيد، مستقل بنفسه.

إلى أن يقول: فقد ثبت بما شرحناه، وأوضحناه، أن الكلام، إنما هو في لغة العرب، عبارة عن الألفاظ القائمة برءوسها، المستغنية عن غيرها،

وهي التي يسميها، أهل هذه الصناعة الجمل على اختلاف تركيبها، وثبت أن القول عندها، أوسع من الكلام تصرفاً.(١).

٢ — إقامة الدليل على صحة القضايا النحوية:

ومن ذلك ماجاء به ابن جني في باب غلبة الفروع على الأصول، فقد جاء ابن جني بما يكون منه في معاني العرب، من قلب التشبيه في مثل قول ذي الرمة:

ورمل كأوراك العذارى قطعته — إذا ألبسته المظلمات الحنادس

ليعيد به، وليكون شاهداً، ودليلا على أن مثله يأتي في معاني الإعراب أي، كما يقلب العرب التشبيه، فيجعلون المشبه مشبها به، ويجعلون المشبه به مشبهاً، طلبا للمبالغة في التشبيه، فيجعلون الفرع أصلا، والأصل فرعا فكذلك يفعلون في معاني الإعراب.

وهذا فإنه بعد أن ينتهي من أمثلة التشبيه المقلوب، يقول: فهذا من حملهم الأصل على الفرع، فيما كان الفرع أفاده من الأصل، ونظائره في هذه اللغة كثيرة، ثم يقول: وهذا المعنى عينه: قد استعمله النحويون، في صناعتهم، فشبهوا الأصل بالفرع، في المعنى الذي أفاده ذلك الفرع من ذلك الأصل، ألا ترى أن سيبويه أجاز في قولك: هذا الحسن الوجه، أن يكون الجر، في الوجه من موضعين: أحدهما: الإضافة، والآخر: تشبيه بالضارب الرجل، الذي إنما جاز فيه الجر تشبيها له بالحسن الوجه؟

فإن قيل: وما الذي سوغ لسيبويه هذا، وليس مما يرويه عن العرب رواية، وإنما هو شيء رآه واعتقده لنفسه وعلل به؟ قيل: يدل على صحة

(١) الخصائص ١/٣٢.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ما رآه من هذا ، وذهب إليه : ما عرفه وعرفناه معه : من أن العرب إذا شبهت شيئا بشيء ، مكنت ذلك الشبه لها ، وعمرت به الحال بينهما ، ألا ترام لما شبهوا الفعل المضارع بالاسم ، فأعربوه ، تمموا ذلك المعنى بينهما بأن شبهوا ، اسم الفاعل بالفعل ، فأعملوه[1] ؟!

٣ — الدليل على صحة القضايا التقدية :

وذلك هو ما تجـــده في باب الرد على من ادعى على العرب عنايتها بالألفاظ ، وإغفالها المعاني ، حيث يستدل على عناية العرب بالمعاني قدر عنايتها بالألفاظ ، وأن المعاني أكرم عندها ، لأنها تعتنى بالألفاظ ، فتصلحها وتهذبها ، وتراعيها ، وتلاحظ أحكامها ، بالشعر تارة ، وبالخطب أخرى ، والأسجاع التي تلتزمها ، وتتكلف استمرارها ، وماذلك إلا من أجل المعاني لأن الألفاظ لما كانت عنوان معانيها وطريقا إلى إظهار أغراضها ومراميها أصلحوها ، ورتبوها ، وبالغوا في تحبيرها وتحسينها ، ليكون ذلك أوقع لها في السمع ، وأذهب بها في الدلالة على القصد ، لأن المثـــل إذا كان مسجوعا ، لذ لسامعه حفظه ، فإذا هو حفظه ، كان جديراً باستعماله ولو لم يكن مسجوعا ، لم تأنس النفس به ، ولا أنقت لمستمعه .

وبهذا يتبين مدى تأثير السجع في النفوس ، ثم يخرج بالنتيجة ، بعد إقامة الدليل . فيقول : فإذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظها ، وحسنوها ، وحواشيها ، وهذبوها ، وصقلوا غروبها ، وأرهفوها ، فلا ترين العناية إذ ذاك ، إنما هي بالألفاظ ، بل هي عندنا خدمة منهم للمعاني ، وتنويه بها ، وتشريف لها .

---

(١) الخصائص ١/٣٠١ .

ونظير ذلك : إصلاح الوعاء وتحصينه ، وتزكيته ، وتقديمه ، وإنما المبغى بذلك منه الاحتياط للموعى عليه ، وجواره بمـــا يعطر بشره ، ولا يمس جوهره .

كما قد نجد من المعاني الفاخرة السامية ما يهجنه ، ويغض منه كدرة لفظه وسوء العبارة[1] عنه .

٤ — إقامة الدليل على صحة التعبير ببعض الجمل من الناحية العقلية :

ومثال ذلك ماذكره ابن جني في باب المستحيل ، وصحة قياس الفروع على الأصول ، الذي أراد به — على حد تعبيره — تحصين المعاني ، وتحرير الألفاظ ، والتشجيع على مزاولة الأغراض .

وقد ذكر في هذا الباب : أنه من المحال : أن تنقض أول كلامك بآخره كقولك : (قمت غدا) ، و (سأقوم أمس) ، أما قولك : إن قمت غدا ، قمت معك ، ولم أقم أمس ، وقولك : أعزك الله ، وأطال بقاءك ، فتأتي بلفظ الماضي ، ومعناه الاستقبال : وقوله :

ولقد أمر على اللئيم يسبني فمضيت ثم قلت : لا يعنيني

وقوله : (أوديت إن لم تحب حبو المعتنك) فقد بين قبه أن ما جاء بلفظ الماضي وكان من حقه أن يكون مضارعا ، فالمراد فيه إرادة تحقق الوقوع وتقبيته ، وأن ما جاء بلفظ المضارع ، وكان من حقه أن يكون ماضيا ، فالمراد فيه إنما هو حكاية الحال الماضية ، واستحضار الصورة السابقة[2] .

---

(١) الخصائص ١/٢١٧ .

(٢) الخصائص ٣/٣٣١ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

٥ — الإفصاح عن فلسفة العرب في التعبير :

وذلك ما تجده في باب التجريد ، الذي فهمه ابن جني من خلال تتبعه لكتابات شيخه ، أبي علي الفارسي ، فأعجب به ، وأنق له ، ووجد أن العرب قد تعتقد ، أن في الشيء من نفسه معنى آخر ، كأنه حقيقته ، ومحصوله ، وقد يجري ذلك إلى ألفاظها ، لما عقدت عليه معانيها ، وذلك في نحو قولهم : لئن لقيت زيداً ، لتلقين منه الأسد ، ولئن سألته لتسألن منه البحر فظاهر هذا ، أن فيه من نفسه أسداً وبحراً ، وهو عينه الأسد ، والبحر ، لا أن هناك شيئاً منفصلاً عنه ، ومتأزراً منه وعلى هذا ، يخاطب الإنسان منهم نفسه حتى كأنها تقابله ، أو تخاطبه ، منه قول الأعشى :

وهل تطيق وداعاً ، أيها الرجل ؟ !(١)

٦ — الإفصاح عن الصرف في تنوع طرقهم في التعبير :

وذلك هو ما تجده في باب الفرق بين الحقيقة ، والمجاز ، والذي بين فيه أن المجاز ، إنما يقع ، ويعدل إليه عن الحقيقة ، لمعان ثلاثة ، وهي : الاتساع ، والتوكيد والتشبيه ، فإن عدم هذه الأوصاف ، كانت الحقيقة ألبتة ، ومن ذلك قول النبي ﷺ — في الفرس — : « هو بحر » ، فالمعاني الثلاثة موجودة فيه ، أما الاتساع ، فلأنه زاد في أسماء الفرس التي هي : فرس ، وطرف ، وجواد ، ونحوها : البحر ، وأما التشبيه : فلأن جريه يجري في الكثرة مجرى مائه ، وأما التوكيد : فلأنه شبه العرض بالجوهر ، وهو أثبت في النفوس منه ، والشبه في العرض منتفية عنه .

وكذلك قوله تعالى : « وأدخلناه في رحمتنا » هو مجاز ، وفيه الأوصاف

(١) الخصائص ٢/٤٧٣ .

الثلاثة ، أما السعة : فلأنه ، كأنه زاد في أسماء الجهات والمحال أسماهو : الرحمة ، وأما التشبيه ، فلأنه شبه الرحمة ـ وإن لم يصح دخولها ـ بما يجوز دخوله ، فلذلك وضعها موضعه .

وأما التوكيد : فلأنه أخبر عن العرض بما يخبر به عن الجوهر ، وهذا تعال بالعرض ، وتفخيم منه ، إذ صير إلى حيز ما يشاهد ، ويلتمس ، ويعاين (١) .

٧ — بيان اختلاف النظم في الجمل ، مع جريانها على حسب قوانين النحـــو :

وذلك ما تجده في باب : شجاعة العربية ، والذي وجده ابن جني شاملا ، للحذف ، والزيادة ، والتقديم ، والتأخير ، والحمل على المعنى ، والتحريف ، وقد بين ابن جني أنه إذا ما خولفت قواعد النحو ، على الوجه الذي يؤدي إلى التعقيد ، فإنه لا يجيزه ، لعربي ، ولا لمولد .

وتلك الفصول التي أسماها شجاعة العربية ، إنما سميت بذلك لأن الشاعر فيها إنما يجري عليها ثقة بامتلاك ناصية اللغة ، واعتماداً على تمكنه منها ، فإذا ما أدى به ذلك إلى التعقيد الذي يستهلك المعنى في مثل قول الشاعر :

وما مثله في الناس إلا مملكا أبو أمه حي أبوه يقاربه

فإنه ، لا يجيزه لعربي ، ولا يبيحه لمولد(٢) .

(١) الخصائص ٢/٤٤٢
(٢) الخصائص ١/٢٣٠

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

٨ — الاستشهاد بخصائص النظم على صحة القضايا اللغوية :

ومن ذلك : ما تجده فى باب قوة اللفظ لقوة المعنى ، الذى بين فيه أن : خشن فى اللغة ـ دون أخشوشن ، لما فيه من تكرير العين ، وزيادة اللام ، ومنه قول عمر ـ رضى الله عنه ـ أخشوشنوا ، وتمعددوا ، أى : أصلبوا ، وتناهوا فى الخشنة ، وقولهم : أعشب المكان ، فإذا أرادوا ، كثرة العشب فيه قالوا : أعشوشب .

وقد استشهد على هذه القضية اللغوية بقوله تعالى: « أخذ عزيز مقتدر» فقتدر هنا ، أوفق ، من قادر ، من حيث كان الموضع لتفخيم الأمر ، وشدة الأخذ ، وعليه ـ عند ابن جنى ـ قول الله تعالى : « لها ما كسبت ، وعليها ما اكتسبت ، فالحسنة تصغر بالنسبة لجزائها،لأن جزاءها هو عشرة أمثالها ، ولما كان جزاء السيئة إنما هو بمثلها لم تحتقر بالنسبة للجزاء عنها ، ولهذا كانت قوة فعل السيئة على فعل الحسنة ، يقول الله تعالى : تكاد السموات يتفطرن منه ، وتنشق الأرض ، وتخر الجبال هدا ، أن دعوا للرحمن ولداً ، ، فإذا كان فعل السيئة ذاهبا بصاحبه إلى هذه الغاية البعيدة المترامية ، عظم قدرها ، وفخم لفظ العبارة عنها ، فقيل ، « لها ما كسبت، وعليها ما اكتسبت ، ، فزيد فى لفظ فعل السيئة وانتقص من لفظ فعل الحسنة (١) .

(١) الخصائص ٣/٣٦٥

خصائص النظم

فى كتاب « الخصائص »

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

من فصاحة الكلام

١ — الخلو من ضعف التأليف :

مما يشترطه المتأخرون من البلاغيين فى فصاحة الكلام ، **الخلو من ضعف التأليف** وقد عنوا به ، أن يكون الكلام جارياً على غير المشهور من قواعد النحو ، وذلك كالاضمار قبل الذكر ، لفظاً ومعنى ، نحو ضرب غلامه زيداً (١) .

فابن جنى له من هذا الباب شطره ، إذ يعد المتأخرون ابن جنى ممن خالف فى تلك المسألة التى أسلفناها .

وابن جنى يعرض المسألة فى شىء غير قليل من التفصيل ، ثم يعرض رأيه فيها مؤيداً رأيه ما استطاع إلى ذلك سبيلا :

وقد أورد تلك المسألة التى مثل بها البلاغيون لضعف التأليف لجريانها على غير المشهور من آراء النحاة ، فى باب أسماه « نقض المراتب إذا عرض هناك عارض » .

ثم ذكر أن من ذلك امتناعهم من تقديم الفاعل فى نحو : ضرب غلامه زيداً وسبب هذا الامتناع إنما هو : إضافة الفاعل إلى ضمير المفعول ، وفساد تقدم المضمر على مظهره لفظا ومعنى ، ولهذا فإن عليك إذا أردت تصحيح المسألة ، أن تؤخر الفاعل ، فتقول : ضرب زيداً غلامه .

وعليه قول الله تعالى : « وإذ ابتلى إبراهيم ربه » .

وأجمعوا ، على أنه لا يجوز لك أن تقول : (ضرب غلامه زيداً) وذلك لتقدم المضمر على مظهره لفظاً ومعنى .

(١) الإيضاح ٥

وأما قول النابغة :

جزى ربه عنى عدى بن حاتم
جزاء الكلاب العاويات وقد فعل

فقد قالوا فيه : إن الهاء عائدة على مذكور متقدم ، وكل ذلك لئلا يتقدم ضمير المفعول عليه مضافاً إلى الفاعل ، فيكون مقدماً عليه لفظاً ومعنى ، يقول ابن جنى « وأما أنا فأجيز أن تكون الهاء فى قوله :

جزى ربه عنى عدى بن حاتم

عائدة على (عدى) خلافا على الجماعة

وهنا يقدر ابن جنى أن قائلا قال : ألا تعلم أن الفاعل رتبته التقدم ، والمفعول رتبته التأخر ، فقد وقع كل منهما الموقع الذى هو أولى به ، فليس لك أن تعتقد فى الفاعل ـ وقد وقع مقدما ـ أن موضعه التأخير ، وإنما المأخوذ به فى ذلك : أن يعتقد ، فى الفاعل إذا وقع مؤخرا ، أن موضعه التقديم ، فإذا وقع مقدما ، فقد أخذ مأخذه ، ورست به قدمه ، وإذا كان كذلك ، فقد وقع المضمر قبل مظهره لفظاً ومعنى ، وهذا ما لا يجوزه القياس » .

ويجيب ابن جنى بأنه قد شاع عنهم واطرد من مذاهبهم كثرة تقدم المفعول على الفاعل حتى دعا ذلك أبا على إلى أن قال : إن تقدم المفعول على الفاعل قسم قائم برأسه ، كما أن تقدم الفاعل قسم ـ أيضا ـ قائم برأسه ، وان كان تقديم الفاعل أكثر ، وقد جاء به الاستعمال مجيئاً واسعاً ، نحو قول الله عز وجل : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » ، وقول ذى الرمة :

أستحدث الركب من أشياعهم خبراً
أم عاود القلب من أطرابه طرب

إهداء من شبكة الألوكة

وقول معفر بن حمار البارقي :

أجد الركب بعد غد خفوف وأمست من لبانتك الألوف

وقول الله عز وجل « ألهاكم التكاثر » .

إلى أن قال : والأمر في كثرة تقديم المفعول على الفاعل في القرآن ، وفصيح الكلام متعالم غير مستنكر ؛ فلما كثر وشاع تقديم المفعول على الفاعل كان الموضع له ، حتى إنه إذا أخر ، فموضعه التقديم ، فعلى ذلك كأنه قال : (جزى عدى بن حاتم ربه) ثم قدم الفاعل على أنه قد قدره مقدماً عليه مفعوله فجاز ذلك .

ثم قال : ولا تستنكر هذا الذي صورته لك ، ولا يخف عليك ، فإنه مما تقبله هذه اللغة ، ولا تعافه ، ولا تقشعه[1] .

ومما ذكره ابن جني يتضح لك أن عامة النحويين لا يجيزون عود الضمير على متأخر لفظا ورتبة في مثل قولهم (ضرب غلامه زيداً) ولكن قول ابن جني : « وأما أنا فأجيز » بعد قوله : « وأجمعوا على أنه لا يجوز » ، يفيد أنه هو الذي خالف في تلك المسألة من بين النحويين ، مع أن من المتأخرين من يذكر الأخفش وابن جني[2] .

كما يفهم من قوله ـ أيضا ـ أن السر في جواز : « ضرب غلامه زيدا » عنده إنما هو كثرة تقديمهم المفعول على الفاعل ، فصار الموضع له ، فكأنه قد قدم وكأنه قد قال : (ضرب زيدا غلامه) ؛ وهذا شبيه بباب : « غلبة الفروع على الأصول » ؛ الذي عقده لجعل المشبه به مشبها ، والمشبه مشبها به .

وسوف نتعرض له ، في التشبيه المقلوب — إن شاء الله تعالى —

---

(١) الخصائص ١/٢٩٧

(٢) حاشية الدسوقي (شروح التلخيص) ١/٩٧

ويفصل ابن يعقوب المغربي مسألة الإضمار قبل الذكر ، وبعده بما يلي :

١ — إذا كان الغلام هو الضارب ، وعاد منه الضمير على زيد ، فقد ذكر ضمير زيد قبل ذكر لفظ زيد حقيقة وتقديراً ؛ إلا أنه في رتبة التأخير ، لكونه مفعولا ، وقبل ذكر معناه ؛ ومع ذلك فليس في حكم المذكور ، فهذا التأليف ضعيف يخل بالفصاحة .

٢ — وأما إن كان الإضمار بعد الذكر ، لفظا ؛ حقيقة ، كجاءني رجل فأكرمته أو تقديراً ، كضرب غلامه زيد ، على أن زيدا ، فاعل ، لأنه في تقدير التقديم ، أو كان الإضمار ، بعد ذكر ما يتضمن معناه ، كقوله تعالى :

« إعدلوا هو أقرب للتقوى » ، فإن الضمير عائد إلى العدل المفهوم من « اعدلوا » ، أو كان المعاد في حكم المذكور ؛ وذلك بأن لا يتقدم ما يدل على معناه ، ولا يتقدم لفظه صريحا أو تقديراً ، ولكن المعاد مؤخر مع وجود نكتة في الإضمار أولا كالإبهام ، ثم البيان ، ليتمكن في ذهن السامع عند اقتضاء المقام ذلك ، كضمير الشأن في نحو : (هو زيد قائم) وضمير رب في قوله :

ربه فتية دعوت إلى ما يورث الحمد دائماً فأجابوا

فلا ضعف في ذلك[1] .

---

(١) مواهب الفتاح (شروح التلخيص) ١/٩٨

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

٢ — الخلو من التعقيد اللفظي

يمكن أن نتبين هذا المعنى، من خلال فصل عقده ابن جني لما أسماه: «بالفروق والفصول»، وهي الأمور التي يفرق بها بين المضاف والمضاف إليه، وبين الفعل والفاعل، وبين المبتدأ والخبر، وبين الصفة والموصوف، أو ينتج عنها تقديم وتأخير على غير وجهه الصحيح مما يؤدي بالكلام إلى التعقيد اللفظي(١) — كما يسميه جمهور البلاغيين — أو المغالطة المعنوية يسميه أبو هلال العسكري(٢)، ويجاريه في ذلك ابن الأثير.

على أن هـــذه الأمور، وإن كانت تعرقل السامع عن فهم المعاني المقصورة من الكلام، ولا يرتضيها الذوق السليم، ولا يأنس إليها الطبع الصحيح؛ وتدل على جور الشاعر وتعسفه، إلا أنها لا تدل على ضعف لغته بل إنها مؤذنة بعلو قدمه في مجال الفصاحة؛ لأنه إنما تعسف ما تعسف ثقة — كما منه في امتلاك زمام اللغة، والتصرف فيها على حسب إرادته —.

ولهذا: أدخلها ابن جني في باب: شجاعة العربية، لدلالتها على شجاعة الشاعر في تجشمه ما لم يعهد من أمر اللغة، وخرق العادة فيها.

«فمتى رأيت الشاعر قد ارتكب مثل هـــذه الضرورات على قبحها، وانخراق الأصول بها — فاعلم أن ذلك — على ما جشمه منه — وإن دل من وجه — على جوره وتعسفه، فإنه من وجه آخر مؤذن بصياله وتخمطه، وليس بقاطع دليل على ضعف لغته، ولا قصوره عن اختياره الوجه الناطق بفصاحته.

---

(١) الخصائص ٢/٣٩٠
(٢) الصناعتين ١٧٩

بل مثله في ذلك — عندي — مثل جري الجموم بلا لجام، ووارد الحرب الضروس حاسرا من غير احتشام، فهو — وإن كان ملوما في عنفه وتهالكه — فإنه مشهود له بشجاعته، وفيض مته؛ ألا تراه لا يجهل، أن لو تكفر في سلاحه، أو اعتصم بلجام جواده، لكان أقرب إلى النجاة وأبعد عن الملاحاة؟ لكنه جشم ما جشمه على علمه بما يعقب اقتحام مثله، إدلالا بقوة طبعه، ودلالة على شهامة نفسه؟!».

ثم يزيد ابن جني هذا الأمر تأكيدا؛ وهو أن تلك الأمور السابقة «مما لا يقدح في فصاحة الشاعر — وإن كانت تقدح في فصاحة الشعر — فيقول: «فاعرف بما ذكرناه حال ما يرد في معناه، وأن الشاعر، إذا أورد منه شيئا، فكأنه لأنفسه جشم غرضه وسفور مراده لم يرتكب صعبا، ولا جشم إلا أمما؛ وافق بذلك قابلا له، أو صادف غير آنس به، إلا أنه هو قد استرسل واثقا، وبنى الأمر على أن ليس ملتبسا»(٣).

درجات القبح بين الفروق والفصول:

وأقبح الفروق إنما تكون بين المضاف والمضاف إليه؛ لشدة الاتصال بين المتضايفين؛ فكلما ازداد الجزآن اتصالا، قوي قبح الفصل بينهما.

ويلي ذلك في القبح: الفصل بين الفعل والفاعل بالأجنبي؛ وإنما كان دون الأول؛ لجواز الفصل بينهما بالظرف، كما في قولك: كان فيك زيد راغبا، وقبح الفصل بين المتضايفين، كما في نحو قول الفرزدق(٤):

---

(١) الخصائص ٢/٣٩٢
(٢) ديوان الفرزدق ١/٣٤٩

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فلما الصلاة دعا المنادى
نهضت ، وكنت منها فى غرور

والفصل هنا مبنى على أن (لما) اسم بمعنى «حين» مضاف إلى جملة : (دعا المنادى) والعامل فيه «نهضت» .

أمثلة للفصول والتقديم والتأخير :

من ذلك قول الشاعر :

فقد — والشك بين لى ، عناء —
بوشك فراقهم ، صرد يصيح

أراد : فقد بين لى صرد يصيح بوشك فراقهم ، والشك عناء :

فقد فصل فيه بين (قد) والفعل : (بين) ؛ وفصل بين المبتدأ الذى هو «الشك» ، وبين الخبر الذى هو (عناء) بقوله : (بين لى) . وفصل بين الفعل الذى هو : (بين) وبين فاعله الذى هو : (صرد) بخبر المبتدأ الذى هو (عناء) ، وقدم قوله : (بوشك فراقهم) وهو معمول (يصيح) ويصيح صفة لصرد ، على صرد وتقدم الصفة أو ما يتعلق بها على موصوفها ، قبيح .

وقد ذكر ابن جنى هذا البيت فى مكان آخر من الخصائص ، وأورد بعده بيتاً آخر هو غاية فى التعقيد قائلا : «وأغرب من ذلك وأفحش ، وأذهب فى القبح ، قول الآخر :

لها مقلتا حوراء طل خميلة
من الوحش ما تنفك ترعى عرارها

أراد : لها مقلتا حوراء من الوحش ما تنفك ترعى خميلة طل عرارها»

قبل هذا لا نجيزه للعرب أصلا ، فضلا عن أن نتخذه للمولدين رسما»(١) .

ومن ذلك قول الآخر :

فأصبحت بعد خط بهجتها
كأن قفراً رسومها قلما

أراد : فأصبحت بعد بهجتها قفرا ، كأن قلما خط رسومها ؛ ففصل بين المضاف الذى هو : (بعد) والمضاف إليه الذى هو : (بهجتها) بالفعل الذى هو : (خط) ؛ وفصل أيضا بين كأن واسمها الذى هو : (قلما) بأجنبيين : أحدهما : قفراً ، والآخر : رسومها ؛ لأن رسومها مفعول خط الذى هو : خبر كأن ، وهذا قبيح .

وأقبح من هذا : أنه قدم خبر كأن عليها ، وهو قوله : خط ، وهذا ونحوه مما لا يجوز لأحد قياس عليه(٢) .

وأما بيت الكتاب(٣) :

وما مثله فى الناس إلا مملكا
أبو أمه حى أبوه يقاربه

فحديثه معروف .

---

(١) الخصائص ١/٣٣٠ (٢) الخصائص ٢/٣٩٢

(٣) لا يوجد هذا البيت فى الكتاب ، وهو منسوب إلى الفرزدق ؛ وليس فى ديوانه ونسبه المبرد فى الكامل ١/١٢٧ (طبعة المرصفى) وابن رشيق فى العمدة فى «باب الوحشى المتكلف ، والركيك المستضعف» ، وأبو الفرج فى الأغانى ١٩/١٥ (طبعة بولاق) مع مخالفه فى الشطر الأول وكذلك صاحب معاهد التنصيص .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ومن ذلك قوله :

فليست خراسان التى كان خالد
بها أسد ، إذ كان سيفاً أميرها

وقد ذكر ابن جنى أن حديث هذا البيت طريف ، وهو : أنه - فيما ذكر - يمدح خالد بن الوليد ويهجو أسدا ، وكان أسد وليها بعد خالد ، قالوا : فكأنه قال : وليست خراسان بالبلدة التى كان خالد بها سيفاً ، إذ كان أسد أميرها ، فى كان - على هذا - ضمير الشأن والحديث ، والجملة بعدها ، التى هى (أسد أميرها) خبر عنها ، وفى هذا التنزيل أشياء : منها الفصل بين اسم كان الأولى وهو (خالد) وبين خبرها ، الذى هو (سيفاً) بقوله : (بها أسد إذ كان) ، وفيها : أنه قدم بعض ما « إذ » مضافة إليه ، وهو (أسد) عليها ، وفى تقديم المضاف إليه ، أو شىء منه على المضاف من القبح والفساد مالا خفاء به ولا ارتياب . وفيه - أيضا - : أن (أسد) أحد جزأى الجملة المفسرة للضمير على شريطة التفسير ، يعنى ما فى كان منه ، وهذا الضمير ، لايكون تفسير إلا من بعده ، ولو تقدم تفسيره قبله لما احتاج إلى تفسير (١) .

ومن الفصل بين المضاف والمضاف إليه بالنداء قول الشاعر :

كأن برذون أبا عصام زيد حمار دق باللجام

أى كأن برذون زيد - يا أبا عصام - حمار دق باللجام .

وأما الفصل بين المضاف والمضاف إليه بالظرف والجار والمجرور فإنه كثير ، ولكنه قبيح ، وهو من ضرورات الشعراء .

---

(١) الخصائص ٢/٣٩٧

ومن ذلك قول ذى الرمة :

كأن أصوات من إيغالهن بنا
أواخر الميس أصوات الفرارج (١)

وقول أبى حية النميرى :

كما خط الكتاب بكف يوماً يهودى ، يقارب أو يزيل

أى : بكف يهودى ، وقد كانت الكتابة يتعاطاها اليهود ، ويقارب أو يزيل ، يعنى : يدنى بعض خطه من بعض ، أو يميز بين الحروف ، ويباعد بينها (٢) .

ومنه قول درنى بنت عبعبة (٣)

هما أخوا فى الحرب من لا أخاله
إذا خاف يوماً نبوة فدعاهما .

أى : هما أخوا من لا أخاله فى الحرب ، فعلق الظرف بما فى (أخوا) من معنى الفعل ، لأن معناه هما ينصرانه ، ويعاونانه .

ومنه قول تأبط شراً (٤) :

هما خطتا ، إما إسار ومنة
وإما دم ، والقتل بالحر أجدر

---

(١) الكتاب ١/٩٢ والخزانة ٢/١١٩ وديوان الرمة ٧٦ .
(٢) شواهد العينى ٣/٤٧٠ ، اللسان (مادة عجم)
(٣) الكتاب ١/٩٣ ، واللسان مادة (أبو) فى الحماسة (شرح التبريزى) طبعة بن ٤٨٣ أن هذا الشعر لعمرة الخثعمية .
(٤) الخزانة ٣ / ٣٥٦

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ففصل بين (خطتا) و (إسار) بقوله (إما) .

ومن ذلك قول الآخر :

فزججتها بمزجـــــة زج القلوص أبي مزادة

أى : زج أبي مزادة القلوص ، ففصل بينهما بالمفعول به ، «مع قدرته على أن يقول : زج القلوص أبو مزاده » .

يقول ابن جنى ، «وفى هذا البيت عندى دليل على قوة إضافة المصدر إلى الفاعل عندهم ، وأنه فى نفوسهم أقوى من إضافته إلى المفعول ، ألا تراه أرتكب ههنا الضرورة ، مع تمكنه من ترك ارتكابها ، لا لشىء غير الرغبة فى إضافة المصدر إلى الفاعل دون المفعول ؟ (١)

وقد جاء الفصل بين الجازم والمجزوم ، تشبيها بالجار والمجـــرور ، فى قول ذى الرمة :

فأضحت مغانيهـــا قفاراً رسومها
كأن لم يسوى أهل من الوحش توهل

وقد جاء هذا فى ناصب الفعل — أيضاً — ، كالذى رواه ابن جنى عن محمد بن الحسن عن أحمد بن يحيى ، وهو قول الشاعر :

لما رأيت أبا يزيد مقاتلا أدع القتال ، وأشهد الهيجاء

أى لن أدع القتال ، ما رأيت أبا يزيد مقاتلا ، كما أراد فى الأول : كأن لم يسوى أهل من الوحش :

(١) الخصائص ٢/ ٤٠٦

يقول ابن جنى : وكأنه شبه (لن) (بأن) ، فكما جاز الفصل بين أن واسمها بالظرف فى نحو قولك : بلغنى أن فى الدار زيداً ، كذلك شبه (لن) مع الضرورة بها ، ففصل بينها وبين منصوبها ، بالظرف الذى هو : (ما رأيت أبا يزيد) ، أى : مدة رؤيتى » (١) .

وقد كان أبو الفتح ابن جنى معاصراً ، لأبى الطيب المتنبى ومصاحباً له محباً لشعره ، وقد وجد فى شعره شيئا مما ذكره فى هذا الباب ، وهو قوله :

وفاؤكما كالربع أشجاه طاسمـــه
بأن تسعدا والدمع أشفاه ساجمه

فقال أبو الفتح ابن جنى :

« وذاكرت المتنبى شاعرنا نحوا من هذا ، وطالبته به فى شىء من شعره فقال : لا أدرى ماهو ، إلا أن الشاعر قد قال :

لسنا كمن حلت إياد دارها
تكريت ترقب حبها أن يحصدا

فعجبت من ذكائه وحضوره ، مع قوة المطالبة له حتى أورد ما هو فى معنى الذى تعقبته عليه من شعره ، وذكرنا ذلك لاتصاله بما نحن عليه ، فإن الأمر يذكر للأمر (٢) » .

ومعنى هذا البيت : لسنا كمن حلت دارها ، ثم أبدل (إياد) من (حلت دارها) فإن حملته على هذا كان لحنا ، لفصلك بالبدل بين بعض الصلة وبعض ، وهذا خطأ فى الصناعة ، وإذا كان كذلك والمعنى عليه : أضمرت ما يدل عليه (حلت) فنصبت به الدار ، فصار تقديره : لسنا كمن حلت إياد

(١) الخصائص ٢/ ٤١١ (٢) الخصائص ٢/ ٤٠٢، ٤٠٣

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أى : كإياد التى حلت ، ثم قلت من بعده : حلت دارها ، فدل حلت فى الصلة على حلت هذه التى نصبت (دارها) .

ولم يعلق ابن جنى على بيت أبى الطيب ـ كما رأيت ـ لحبه لشعر أبى الطيب المتنبى ولكن الذى علق عليه معاصره القاضى الجرجانى ، كما سيأتى .

إفادة البلاغيين من هذا الباب

أظهر ما يميز هذا الباب عند ابن جنى هو أن الشاعر فيه لا يجرى على قوانين النحو ، لأن فيه فصلا بين المتضايفين ، أو فصلا بين الصفة والموصوف أو فصلا بين الفعل والفاعل ، أو تقديماً وتأخيراً بغير موجب ، وتلك أمور ، داخلة فى نطاق النحو .

وهى — وإن دلت على شجاعة الشاعر القديم — ، لارتكابه إياها ، ثقة بتمكنه من ناصية اللغة — فى رأى ابن جنى حيث سماها شجاعة العربية — إلا أنها فى الوقت نفسه قبيحة جداً . ولا يجوز تقليد الشاعر القديم فيها ، ولهذا قال : « فمثل هذا لا نجيزه للعربى أصلا ، فضلا عن أن نتخذه للمولدين رسماً » ثم قال : « فاعرفه ، واجتنبه » .

ولهذا رأى القاضى الجرجانى المتوفى سنة ٣٩٢هـ ، والذى كان معاصراً لابن جنى أن مثل هذه الأمور مما يؤدى إلى هلهلة النسج ، وإفساد النظم ، وعدم ظهور المعنى ، ووصفها بالتعقيد المفرط ، ويظهر ذلك من خلال قوله معقبا على قول أبى الطيب المتنبى :

وفاؤكما كالربع أشجاه طاسمه
بأن تسعدا ، والدمع أشفاه ساجمه

وذلك حيث يقول : « ومن يرى هذه الألفاظ الهائلة ، والتعقيد

المفرط ، فيشك أن وراءها كنزاً من الحكمة ، وأن فى طيها الغنيمة الباردة ، حتى إذا فتشها ، وكشف عن سترها ، وسهر ليالى متوالية فيها ، حصل على أن : (وفاء كما باعاذل بأن تسعدانى إذا درس شجاى ، وكلما ازداد تدارسا ، ازددت له شجوا ، كما أن الربع أشجاه دارسه ، فما هذا من المعانى التى يضيع لها حلاوة اللفظ ، وبهاء الطبع ، ورونق الاستهلال ويشح عليها حتى يهلهل لأجلها النسج ، ويفسد النظم ، ويفصل بين الباء ومتعلقها بخبر الابتداء قبل تمامه ، ويقدم ، ويؤخر ، ويعمى ، ويعوص »[1] .

وهكذا نجد أن القاضى الجرجانى قد وجد فى بيت أبى الطيب الذى لم يجر فيه على قوانين النحو ، ما أسماه بالتعقيد المفرط ، وبفساد النظم الذى أدى إلى خفاء المعنى .

وجاء عبد القاهر الجرجانى ، فأراد أن يثبت أن النظم ما هو إلا الجرى على قوانين النحو ، فاستدل على صحة كلامه بما قاله القاضى الجرجانى ، قائلا : ويكفيك أنهم قد كشفوا عن وجه ما أردناه ، حيث ذكروا فساد النظم ، فليس من أحد يخالف فى نحو قول الفرزدق :

وما مثله فى الناس إلا مملكا
أبو أمه حى أبوه يقاربه

وقوله :

وفاؤكما كالربع أشجاه طاسمه
بأن تسعدا والدمع أشفاه ساجمه

وفى نظائر ذلك مما وصفوه بفساد النظم ، وعابوه من جهة سوء التأليف

---

(١) الوساطة ٩٨

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أن الفساد والخلل كانا من أن تعاطى الشاعر ما تعاطاه من هذا الشأن على غير الصواب، وصنع فى تقديم أو تأخير، أو حذف وإضمار، أو غير ذلك مما ليس له أن يصنعه، وما لا يسوغ، ولا يصح على أصول هذا العلم.

وإذا ثبت أن سبب فساد النظم واختلاله ألا يعمل بقوانين هذا الشأن ثبت أن الحكم كذلك فى مزيته والفضيلة التى تعرض فيـــه، وإذ ثبت جميع ذلك ثبت أن ليس هو شيئاً غير توخى معانى هذا العلم وأحكامه فيما بين الكلم (١) »

فلما جاء الخطيب القزوينى سمى هذا النوع من الكلام، باسم التعقيد اللفظى، وهو ألا يكون الكلام ظاهر الدلالة على المعنى المراد بسبب خلل واقع فى نظمه، فلا يدرى السامع كيف يتوصل منه إلى معناه وجعل الخلوص منه شرطاً لفصاحة الكلام (٢).

غير أن أبا هلال العسكرى المتوفى سنة ٣٩٥ هـ والذى كان معاصرا لابن جنى قد أطلق على ماجاء فى هذا الباب عند ابن جنى: باسم المعاظلة، وجعلها من سوء النظم فقال، فمن سوء النظم: المعاظلة. وقد مدح عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ زهيراً لمجانبتها، فقال: كان لا يعاظل بين الكلام، وأصل هذه الكلمة من قولهم: تعاظلت الجرادتان، إذا ركبت إحداهما الأخرى.

ثم ذكر أن قدامة قال: لا أعرف المعاظلة إلا فاحش الاستعارة مثل قول أوس:

(١) دلائل الإعجاز ٥٨ (٢) الإيضاح ٥

وذات هدم عار نواشرها تصمت بالماء تولباً جدعاً

فسمى الصبى تولباً، والتولب: ولد الحمار، وقول الآخر:

وما رقد الولدان حتى رأيتـــه
على البكر يمريه بساق وحافر

فسمى قدم الإنسان حافراً (١). وهـذا غلط من قدامة كبير، لأن المعاظلة: فى أصل الكلام إنما هى ركوب الشىء بعضه بعضاً، وسمى الكلام به إذا لم ينضد نضداً مستوياً وأركب بعض ألفاظه رقاب بعض وتداخلت أجزاؤه تشبيها بتعاظل الجراد وتسمية القدم بحافر ليست بمداخلة كلام، وإنما هو بعد فى الاستعارة (٢).

ولكن ضياء الدين ابن الأثير قد سطا على ما قاله أبو هلال العسكرى وألم بما جاء فى خصائص ابن جنى من الفروق والفصول، وأطلق عليه: المعاظلة المعنوية وهو فى بعض ما قاله ينقل نقلا حرفيا، كلام ابن جنى، ولكنه لم يشر إليه.

وعلى الرغم من أن ابن جنى يقول فى بيت الفرزدق:

إلى ملك، ما أمه من محارب
أبوه، ولا كانت كليب تصاهره

فإنه مستقيم ولا خبط فيه، وذلك أنه أراد: إلى ملك أبوه ما أمه من محارب أى: ما أم أبيه من محارب، فقدم خبر الأب عليه، وهو جملة، كقولك: قام أخوها هند، ومررت بغلامهما أخواك (٣).

(١) نقد الشعر، لقدامة ٢٠١ (٢) الصناعتين ١٨٠
(٣) الخصائص ٢/٣٩٤

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وعلى الرغم من هذا ، فإنك تجد ابن الأثير ، بعد أن ذكر قول بعضهم :

فقدو الشك بين لى عناء ... بوشك فراقهم صرد يصيح

وقول الآخر :

فأصبحت بعد خط بهجتها ... كأن قفراً رسومها قلما

وعلق عليهما بما فهمه من قول ابن جنى ، يقول :

ومما يجرى هذا المجرى قول الفرزدق .

إلى ملك ما أمه من محارب ... أبوه ، ولا كانت كليب تصاهره

وهو يريد : إلى ملك أبوه ما أمه من محارب ، وهذا أقبح من الأول وأكثر اختلالا ،(١)

فأبو الفتح بن جنى — وهو حجة فى النحو — يقول : « إن البيت مستقيم لا خبط فيه » ، وابن الأثير يقول : إنه أقبح من الأول وأكثر اختلالا !!

ولا ريب أن هذه مبالغة ليست فى محلها ، فلئن سلمنا بأن فى البيت تقديما لخبر الأب عليه وهو جملة — على حد تعبير ابن جنى — فإننا لانسلم بأن مافيه يبلغ ما بلغه البيت الأول من الاضطراب والقبح ! إذ يكفى أن معناه واضح مع التقديم المذكور بينما المعنى فى البيت الأول لا يظهر إلا بعد عناء شديد من التقدير والتأويل !!

ولئن كان ابن الأثير قد سمى هذا النوع من الكلام « معاظلة » وسماها غيره تعقيداً لفظيا فإن المطلوب فى النهاية أمر واحد ، وهو خلو الكلام من هذا التعقيد ، حتى يتسم بالفصاحة ، لأن المقصود من الكلام هنا — كما يقول ابن الأثير — معدوم ، وهو الإيضاح ، والإبانة ، وإفهام المعنى ، فإذا ذهب هذا الوصف المقصود من الكلام ذهب المراد به .

---

(١) المثل السائر ٢/٢٢١

فهذا الضرب — كما يقول — : ضد الفصاحة ، لأن الفصاحة هى الظهور والبيان وهذا عار عن هذا الوصف (١) .

ويؤخذ مما أوردناه لابن جنى فى ذلك الفصل مايلى :

١ — أن الأمور التى يفرق بها بين المضاف والمضاف إليه ، أو بين الفعل والفاعل ، أو بين المبتدأ والخبر أو بين الصفة والموصوف ، أو ينتج عنها تقديم وتأخير على غير وجه الصحيح ، مما يؤدى بالكلام إلى ما أسماه المتأخرون تعقيداً لفظياً ، أو مايسميه ابن الأثير معاظلة معنوية .

٢ — أن تلك الأمور — وإن كانت تدل على تعسف الشاعر وجوره ، إلا أنها لاتدل على ضعف لغته ، بل إنها مؤذنة بعلو قدمه فى ميدان الفصاحة لأنه إنما فعل ما فعل ثقة منه بالتمكن من اللغة ، والقدرة على إمتلاك زمامها ولهذا جعل ابن جنى هذا الفصل من بين فصول شجاعة العربية .

٣ — أن تلك الأمور ، وإن كانت تدل على قدرة الشاعر وتمكنه من لغته ، إلا أنه لايجوز القياس عليها ، بل يجب الابتعاد عن مثلها ، ولهذا فإنه يقول معلقاً ، على بيت ضم شيئاً منها : « غير أن فيه ماقدمنا ذكره من سمو الشاعر وتغطرفه ، وبأوه وتعجرفه ، فاعرفه واجتنبه (٢) .

ويقول معلقا على غيره : « فمثل هذا لانجيزه للعربى أصلا فضلا عن أن نتخذه للمولدين رسماً (٣) .

٤ — أن درجات القبح تتفاوت بين تلك « الفروق » و« الفصول » ، حتى تصل إلى مايعد ضرورة مستساغة من ضرورات الشعر .

---

(١) المثل السائر ٢/٢٢٣ (٢) الخصائص ٢/٣٩٣

(٣) الخصائص ١/٣٣٠

إهداء من شبكة الألوكة www.alu...

٥ ــ أفاد البلاغيون من هـــذا الفصل الذى عقده ابن جنى الفروق والفصول إفادة جليلة ، فقد جعله القاضى الجرجانى مفسداً للنظم معقداً للكلام ، مما جعل عبد القاهر يستدل بكلامه على أن الكلام إذا لم يجر على قوانين النحو فإنه يوسم بسوء النظم ، ومن ثم فإنه إذا جرى على تلك القوانين وسم بحسن النظم ، فاستنتج من هذا أن النظم ماهو إلا تتبع معانى النحو فيما بين الكلم على حسب الأغراض التى يساق لها الكلام .

٦ ــ أطلق الخطيب على ماجاء فى هذا الفصل : التعقيد اللفظى ، بينما أطلق عليه ابن الأثير ما دعاه باسم المغالطة المعنوية ، وكلاهما قد جعل الخلو منه شرطا لفصاحة الكلام .

الالفاظ والمعانى

عقد ابن جنى فى كتابه « الخصائص » باباً للرد على من ادعى على العرب عنايتها بالألفاظ وإغفالها المعانى ؛ ولكنه لم يسم من ادعى هذا الادعاء .

وفى فاتحة هذا الباب يذكر أنه من أشرف فصول العربية وأكرمها ، وأعلاها وأنزهها وأنك إذا تأملته عرفت منه وبه مايؤنقك ، ويذهب بك فى الاستحسان له كل مذهب .

وذلك : أن العرب ؛ كما تعنى بألفاظها ؛ فتصلحها ، وتهذبها ، وتراعيها ، وتلاحظ أحكامها ؛ بالشعر تارة ، وبالخطب أخرى ، وبالأسجاع التى تلتزمها ، وتتكلف استمرارها ؛ فإن المعانى أقوى عندها ، وأكرم عليها ، وأفخم قدراً فى نفوسها .

فعناية العرب بالألفاظ إنما تكون من أجل المعانى ، لأن المعانى عندها أكرم وأفخم ، وأجل قدراً من الألفاظ ، ولما كانت الألفاظ عنوان معانيها وطريقها إلى إظهار أغراضها ، ومراميها ، أصلحوها ، ورتبوها وبالغوا فى تحبيرها ، وتحسينها ، ليكون ذلك أوقع فى السمع ، وأذهب بها فى الدلالة على القصد .

والدليل على ذلك : أن المثل إذا كان مسجوعاً ، لذ لسامعه ؛ فحفظه ؛ فإذا هو حفظه كان جديراً باستعماله ، ولو لم يكن مسجوعاً ما أنست النفس به ، ولا أنفقت للاستماع إليه .

ثم يعود ليؤكد ماقاله من فضل المعانى على الألفاظ ؛ فيقول : فإذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظها ، وحسنوها ، وحموا حواشيها وهذبوها ، وصقلوا غروبها ، وأرهفوها ؛ فلاترين أن العناية إذ ذاك إنما هى بالألفاظ ،

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

بل هي عندنا خدمة منهم للمعاني ، وتنويه بها ، وتشريف منها ، ونظير ذلك: إصلاح الوعاء وتحصينه ، وتزكيته ، وتقديمه ، وإنما المبغى بذلك منه الاحتياط للموعى عليه ، وجواره بما يعطر بشره ، ولا يعر جوهره ، كما قد نجد من المعاني الفاخرة السامية مايهجنه ، ويغض منه كدرة لفظه ، وسوء العبارة عنه(١) .

ويفهم من كلام ابن جنى مايلى :

١ — أن عناية العرب بالألفاظ ، إنما هى عناية بالمعانى ، لأن الألفاظ عنوان للمعانى ، وطريق إلى إظهار الأغراض ، والمقاصد ؛ فهم إنما أصلحوا الألفاظ ورتبوها ، وبالغوا فى تحبيرها ، وتحسينها ، لتكون أوقع فى السمع ، وأبلغ فى الدلالة على القصد .

٢ — مظاهر عناية العرب بالألفاظ إنما تتجلى فى الأشعار والخطب ، والأسجاع .

٣ — الألفاظ خدم للمعانى ، فإذا ما اعتنوا بها ، كان ذلك تشريفا للمعانى وتنويها بذكرها .

٤ — الألفاظ أوعية للمعانى ، والعناية بالوعاء عناية بالموعى عليه .

٥ — من المعانى ما يهجنه سوء التعبير عنه .

وابن جنى هنا متأثر بفكرة ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ التى قسم على أساسها الشعر إلى أربعة أضرب :

الأول : ماحسن لفظه ، وجاد معناه .

---

(١) الخصائص لابن جنى ١/٢١٧

والثانى : ماحسن لفظه وحلا ، فإذا أنت فتشته لم تجد هناك فائدة فى المعنى .

والثالث : ما جاد معناه وقصرت ألفاظه عنه .

والرابع : ما تأخر معناه ، وتأخر لفظه(١) .

والدليل على هذا : أنك تجده يورد اعتراضاً يتضمن الضرب الثانى من تلك الأضرب التى ذكرها ابن قتيبة فى تقسيمه للشعر ، بل إنه يورد نفس الأبيات التى اعترض عليها ابن قتيبة ، فيقول : فإن قلت : فإنا نجد من ألفاظهم ما قد نمقوه ، وزخرفوه ، ووشوه ، ودبجوه ، ولسنا نجد مع ذلك تحته معنى شريفا ، بل لا نجده قصدا ولا مقاربا ، ألا ترى إلى قوله(٢) :

ولما قضينا من منى كل حاجة
ومسح بالأركان من هو ماسح

---

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/٧٠

(٢) بين البيتين بيت آخر هو :

وشدت على دهم المهارى رحالنا
ولم ينظر الغادي الذى هو رائح

وترى الأبيات لكثير عزة ، وليزيد بن الطثرية ، ولعقبة بن كعب بن زهير بن أبى سلمى الشعر والشعراء ١/٧٠ ، ديوان كثير ١/٧٩ ، تقد الشعر ١٠ ، ونوادر القالى ١٦٩ ، وذيل السمط ٧٧ ، والوساطة ٣٥ ، والصناعتين ٤٢ ، وهر الآداب ٢/٥٦ ، المرتضى ٢/١١٠ ، ١١١ من ثمانية لعقبة ، ومحاضرات الأدباء (١٢٨٦) ١/٥٦ والشطر الأخير من أبيات التلخيص : المطول ٣٦٧ ، معاهد التنصيص ٢٤٩ والدسوق ٢ / ٤٢٢ ، أنوار الربيع ٧٥ ، ٤٢٧ ، اللسان ١١/١٢١ (مادة طرف) شرح شواهد الإيضاح ٢١ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا
وسالت بأعناق المطى الأباطح

فقد ترى إلى علو هذا اللفظ ومائه ، ورصانته ، وتلاحم أنحائه ، ومعناه مع هذا ما تحسه وتراه ، إنما هو : لما فرغنا من الحج ركبنا الطريق راجعين ، وتحدثنا على ظهور الإبل ؛ ولهذا نظائر كثيرة ، شريفة الألفاظ ، رفيعتها ، مشروفة المعانى خفيضتها[1] .

ويرد ابن جنى على هذا الاعتراض قائلا : هذا الموضع قد سبق إلى التعلق به من لم ينعم النظر فيه ، ولا رأى ما أراد القوم منه ؛ وإنما ذلك لخفاء طبع الناظر ، وخفاء غرض الناطق .

وذلك أن فى قوله : (كل حاجة) : مايفيد منه أهل النسيب والرقة ، وذوو الأهواء والمتعة ، مالا يفيده غيرهم ، ولا يشاركهم فيه من ليس منهم ؛ ألا ترى أن من حوائج (منى) أشياء كثيرة غير ما الظاهر عليه ، والمعتاد فيه سواها ؛ لأن منها : التلاقى ، ومنها : التشاكى ، ومنها : التخلى إلى غير ذلك مما هو تال له ، ومعقود الكون به ، وكأنه صانع عن هذا الموضع الذى أومأ إليه وعقد غرضه عليه ، بقوله فى آخر البيت :

ومسح بالأركان من هو ماسح

أى : إنما كانت حوائجنا التى قضيناها ، وآرابنا التى أنضيناها ، من هذا النحو الذى هو : مسح الأركان ، وما هو لاحق به ، وجار فى القربة من الله مجراه ، أى : لم يتعد هذا القدر المذكور إلى ما يحتمله من التعريض الجارى مجرى التصريح وأما البيت الثانى : فإن فيه :

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا

---

(١) رد أبو هلال العسكرى هذا الكلام فى الصناعتين ٧٣

وذلك أنه لو قال : أخذنا فى أحاديثنا ، لكان فيه معنى يكبره أهل النسيب ، وتعنو له ميعة الماضى الصليب ؛ فقد شاع بينهم واتسع فى محاوراتهم على قدر الحديث بين الأليفين ، والفكاهة بجمع شمل الأليفين ، فإذا كان قدر الحديث ـ مرسلا ـ عندهم هذا ، فكيف به إذا قيده بقوله : (بأطراف الحديث) ؟

وذلك أن فى قوله : (بأطراف الأحاديث) وحيا خفيا ، ورمزا حلوا ، ألا ترى أنه يرى بأطرافها : مايتعاطاه المحبون ، ويتفاوضه ذوو الصبابة المتيمون ، من التعريض ، والتلويح ، والإيماء ، دون التصريح ، وذلك أحلى وأدمث . وأغزل وأنسب من أن يكون مشافهة وكشفا ، ومصارحة وجهرا ، وإذا كان كذلك فمعنى هذين البيتين أعلى عندهم ، وأشد تقدما فى نفوسهم من لفظهما ؛ وإن عذب موقعه ، وأنق له مستمعه .

نعم ، وفى قوله :

وسالت بأعناق المطى الأباطح

من الفصاحة مالا خفاء به ، والأمر فى هذا أسير ، وأعرف ، وأشهر »[1] .

ثم يشفع ابن جنى هذا الرد بدليل آخر على أن العرب إنما تحلى ألفاظها وتدبجها وتشيها ، وتزخرفها ؛ عناية بالمعانى التى وراءها . وتوصلا إلى إدراك مطالبها ، بقول النبى ـ ﷺ ـ : « إن من الشعر لحكماً ، وإن من البيان لسحراً » ، فإذا كان رسول الله ـ ﷺ ـ يعتقد هذا فى ألفاظ هؤلاء القوم ، تلك الألفاظ التى جعلت مصايد وأشراكاً للقلوب ، وسبباً

---

(١) الخصائص ١/٢٢٠

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وسلما إلى تحصيل المطلوب ، عرف بذلك أن الألفاظ خدم للمعانى ، والمخدوم - ولا شك - أشرف من الخادم »(١) .

وقد أفاد الإمام عبد القاهر الجرجانى من رد ابن جنى على من ادعى على العرب عنايتها بالألفاظ ، وإغفالها المعانى ، ويتجلى ذلك فيما يلى :

١ — فى فاتحة كتاب أسرار البلاغة ، يبين أن الفضيلة لا ترجع إلى الألفاظ ، لأنها لا تفيد حتى تؤلف ضربا خاصا من التأليف ، ويعمد بها إلى وجه دون وجه من التركيب ، والترتيب ، فإذا مارأيت البصير بجواهر الكلام يستحسن شعرا ، أو يستجيد نثرا ، ثم يجعل الثناء عليه من حيث اللفظ ، فيقول : حلو رشيق ، وحسن أنيق ، وعذب سائغ ، وحلو رائع ، فاعلم أنه ليس ينبئك عن أحوال ترجع إلى أجراس الحروف ، وإلى ظاهر الوضع اللغوى ، بل أمر يقع من المرء فى فؤاده . وفضل يقتدحه العقل من زناده(٢) .

أما استحسان اللفظ من حيث هو لفظ ، فإنه لا يكاد يعدو نمطا واحداً من الكلام ، وهو : أن تكون اللفظة مما يتعارفه الناس فى استعمالهم ويتداولونه فى زمانهم ، ولا يكون وحشيا غريبا ، أو عاميا سخيفاً .

٢ — أفاد عبد القاهر من عبارة ابن جنى : « إن الألفاظ خدم للمعانى » فذكر أن من أقسام الكلام مايتوهم فى بدء الفكرة ، وقبل إتمام العبرة : أن الحسن والقبح فيها لا يتعدى اللفظ والجرس إلى ماينا جى فيه العقل النفس ، ومنها : التجنيس ، والسجع ، فإنك لا تستحسن تجانس اللفظين إلا إذا كان موقع معنييهما من العقل موقعا حميدا ولم يكن مرمى الجامع بينهما مرمى بعيداً ، ولهذا دم الاستكثار منه ، والولوع به لأن المعانى

(١) نفس المصدر .
(٢) أسرار البلاغة ٣ ، ٤

لا تدين فى كل موضع لما يجذبها التجنيس إليه ، لأن الألفاظ خدم المعانى ، والمصرفة فى حكمها ، فكانت هى المالكة سياستها ، والمستحقة طاعتها ، فمن نصر اللفظ على المعنى ، كان كمن أزال الشىء على جهته ، وأحاله عن طبيعته ، وذلك مظنة الاستكراه ، وفيه فتح أبواب العيب والتعرض للشين(١) .

٣ — أفاد عبد القاهر من عبارة ابن جنى « أن الألفاظ أوعية للمعانى » وهو يشرح معنى النظم ، مبينا أن القصد فيه إلى المعنى لا إلى اللفظ ، قائلا : « واعلم أن ماترى أنه لابد منه ، من ترتيب الألفاظ وتوالبها على النظم الخاص ، ليس هو الذى طلبته بالفكر ، ولكنه شىء يقع بسبب الأول (أى المعنى) ضرورة ، من حيث أن الألفاظ إذا كانت أوعية للمعانى فإنها - لامحالة - تتبع المعانى فى مواقعها ، فإذا وجب لمعنى أن يكون أولا فى النفس وجب عليه أن يكون مثله أولا فى النطق »(٢) .

٤ — أفاد عبد القاهر من رد ابن جنى على ابن قتيبة فى ادعائه أن قول الشاعر : (ولما قضينا من منى كل حاجة ... إلخ) جيد اللفظ فارغ من المعنى غير أنه قد تنبه إلى ما لم يتنبه إليه ابن جنى من الاستعارة اللطيفة فى قوله : (وسالت بأعناق المطى الأباطح) ، لأن ابن جنى لم يزد على أن قال : « نعم وفى قوله : (وسالت بأعناق المطى الأباطح) من الفصاحة مالا خفاء فيه ، والأمر فى هذا أسير ، وأعرف ، وأشهر »(٣) .

(١) أسرار البلاغة ٨
(٢) دلائل الإعجاز ٤٣
(٣) الخصائص ١/٢٢٠

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وقد تركز رد ابن جنى فى أمرين :

أولهما : أن فى قوله : (كل حاجة) تعريضاً ، بالتلاقى ، والتشاكى ، والتخلى ، أى طلب الخلوة بالحبيب ، وهذا غرض الشاعر وقصده ، ولكنه أوما إليه إيماء ، ثم صانع عنه ، وغطاه بقوله : (ومسح بالأركان من هو ماسح) .

والآخر : أن فى قوله (بأطراف الأحاديث) وحيا خفيا ، ورمزاً حلوا ، لأن المراد بأطراف الأحاديث : مايتعاطاه المحبون ويتناوله ذوو الصبابة المتيمون ، من التعريض ، والتلويح ، والإيماء ، دون التصريح ، لأن ذلك أحلى ، وأدمث ، وأغزل ، وأنسب ، من أن يكون مشافهة وكشفا ، ومصارحة وجهرا .

ففرض الشاعر — كما نرى — كان مركزاً — كما يرى ابن جنى — على التعريض بمتطلبات قلبه من التلاقى ، والتشاكى ، والخلوة بمن يحب ، ثم بما ناله فى طريق أوبته من متعة الأخذ بأطراف الأحاديث ، من التعريض ، والتلويح ، والإيماء بما يكون أحلى ، وأدمث ، وأغزل ، وأنسب .

غير أن عبد القاهر لم يجعل غرض الشاعر مركزاً على التعريض بمتطلبات قلبه ، وإن لم يهمل تلك الناحية العاطفية فى شرحه لتلك الأبيات ، وذلك حيث يقول(١) : « وإذا وجدت ذلك أمراً بينا ، لايعارضك فيه شك ، ولا يملك معه امتراء ، فانظر إلى الأشعار التى أثنوا عليها من جهة الألفاظ ، ووصفوها بالسلاسة ، ونسبوها إلى الدماثة ، وقالوا : كأنها الماء جريانا والهواء لطفا ، والرياض حسنا ، وكأنها الرحيق مزاجها

(١) أسرار البلاغة ٢٧

النسيم ، وكأنها الديباج الخسروانى فى مرأى الأبصار ، ووشى اليمن منشوراً على أذرع التجار ، كقوله :

ولما قضينا من منى كل حاجة ومسح بالأركان من هو ماسح
وشدت على دهم المهارى رحالنا ولم ينظر الغادى الذى هو رائح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطى الأباطح

ثم راجع فكرتك ، واشحذ بصيرتك ، وأحسن التأمل ، ودع عنك التجوز فى الرأى ، ثم أنظر : هل تجد لاستحسانهم ، وحمدهم ، وثنائهم ومدحهم منصرفاً إلا ، إلى استعارة ، وقعت موقعها ، وأصابت غرضها ؟ ، أو حسن ترتيب ، تكامل معه البيان ، حتى وصل المعنى إلى القلب ، مع وصول اللفظ إلى السمع ، واستقر فى الفهم مع وقوع العبارة فى الأذن؟! وإلا إلا سلامة الكلام من الحشو غير المفيد ، والفضل الذى هو كالزيادة فى التحديد ؟ !

وذلك أن أول مايتلقاك من محاسن هذا الشعر أنه قال : (ولما قضينا من منى كل حاجة) فعبر عن قضاء المناسك بأجمعها ، والخروج من فروضها وسننها من طريق أمكنه أن يقصر معه اللفظ ، وهو طريقة العموم ، ثم نبه بقوله : (ومسح بالأركان من هو ماسح) على طواف الوداع الذى هو آخر الأمر ، ودليل المسير الذى هو مقصوده من الشعر ثم قال : (أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا) ، فوصل بذكر مسح الأركان ماوليه من ذم الركاب ، وركوب الركبان ، ثم دل بلفظه الأطراف على الصفة التى يختص بها الرفاق فى السفر من التصرف فى فنون القول ، وشجون الحديث ، أو ما هو عادة المتطرفين ، من الإشارة والتلويح ، والرمز ، والإيماء ، وأنبأ بذلك عن طيب النفوس ، وقوة النشاط ، وفضل الاغتباط ، كما توجبه

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ألفة الأصحاب، وأنسة الأحباب، وكما يليق بحال من وفق لقضاء العبادة الشريفة، ورجا حسن الإياب، وتقسم روائح الأحبة والأوطان، واستماع التهانى، والتحايا من الخلان والإخوان، ثم زان ذلك كله باستعارة لطيفة طبق فيها مفصل التشبيه، وأفاد كثيراً من الفوائد بلطف الوحى والتنبيه فصرح أولا بما أومأ إليه، فى الأخذ بأطراف الأحاديث، من أنهم تنازعوا أحاديثهم على ظهور الرواحل، وفى حال التوجه إلى المنازل، وأخبر بعد بسرعة السير، ووطأة الظهر، إذ جعل سلاسة سيرها بهم كالماء، تسيل به الأباطح، وكان فى ذلك مايؤكد ماقبله، لأن الظهور إذا كانت وطيئة، وكان سيرها السير السهل السريع، زاد ذلك فى نشاط الركبان، ومع ازدياد النشاط، يزداد الحديث طيباً ثم قال: «بأعناق المطى» ولم يقل بالمطى، لأن السرعة والبطء يظهران غالباً فى أعناقها (١).

وهكذا تجد من شرح الإمام عبد القاهر لتلك الأبيات أنه لم يجعل غرض الشاعر مركزا على التعريض بمتطلبات قلبه — كما جعله ابن جنى — ، ففسر حاجات الشاعر فى قوله: (ولما قضينا من منى كل حاجة) بأنها: قضاء المناسك بأجمعها، والخروج من فروضها وسننها.

بينما فسرها ابن جنى بأنها تعريض بالتلاقى، والتشاكى، والتخلى أى: طلب الخلوة بالحبيب.

وأما «أطراف الأحاديث»، فقد فسرها بواحد من أمرين:

أولهما: الدلالة على الصفة التى يختص بها الرفاق فى السفر من التصرف فى فنون القول وشجون الحديث.

---

(١) أسرار البلاغة ٢٩.

والآخر: ماهو عادة المتطرفين، من الإشارة، والتلويح، والرمز، والإيماء.

ومما يؤيد وجهة نظر ابن جنى من أن غرض الشاعر، إنما هو التعريض بقضاء مآرب قلبه، قوله:

ولم يبصر الغادى الذى هو رائح

ثم قوله بعد تلك الأبيات:

نقضنا قلوباً بالأحاديث واشتفت
بذاك صدور، منضجات قرائح
ولم نخش ريب الدهر فى كل حالة
ولا راعنا منه سفيح، وبارح

على أن كلا من الإمامين: عبد القاهر، وابن جنى، يقصد بحديثه عن الأبيات السابقة أن العناية بالألفاظ فيها، إنما هى عناية بالمعنى، لأن الألفاظ خدم للمعانى وقد أنبأت الألفاظ — فى الأبيات — عن معانى شريفة، وضحها كل من الإمامين.

وقد أوحى ذكر التعريض، والإشارة، والتلويح والرمز، والإيماء، للإمام أبى يعقوب السكاكى المتوفى سنة ٦٢٦ هـ. أن يقسم الكناية إلى تعريض، وتلويح، ورمز، وإيماء، أو إشارة، فإن كانت عرضية، فالمناسب أن تسمى تعريضاً، وإلا فإن كان بينها وبين المكنى عنه مسافة متباعدة لكثرة الوسائط — كما فى كثرة الرماد وأشباهه — فالمناسب أن تسمى تلويحاً، لأن التلويح هو أن تشير إلى غيرك عن بعد، وإلا فإن كان فيها نوع خفاء، فالمناسب أن تسمى رمزاً، لأن الرمز هو أن تشير إلى قريب منك على سبيل الخفية، وإلا فالمناسب أن تسمى إيماء، أو إشارة (١)

---

(١) المفتاح ١٧٣ والإيضاح ١٨٨

إهداء من شبكة الألوكة www.aluk

وقد نقل ابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٧ هـ كل ماقاله ابن جنى عن البيتين اللذين أسلفنا الحديث عنهما ، نقلا يكاد يكون حرفياً ، دون أن يرجعه إلى قائله، بل إنه ليورد الإعتراض الذى أتى به ابن جنى ثم يقول : فالجواب عن ذلك أنا نقول ، ثم يورد كل ماقاله ابن جنى تقريبا (١) !!

كما أن ابن منظور المتوفى سنة ٧١١ هـ يقول معلقا على البيتين : قال ابن سيده : عنى بأطراف الأحاديث :مختارها ، وهو : مايتعاطاه المجون ويفاوضه ذوو الصبابة المتيمون ، من التعريض ، والتلويح ، والإيماء دون التصريح ، وذلك أحلى وأخف ، وأغزل وأنسب ، من أن يكون مشافهة و كشفاً ، ومصارحـــة وجهرا (٢) . وذلك نص ماقاله ابن جنى فى تفسير لمعنى (أطراف الأحاديث) .

(١) المثل السائر ٢/٦٦

(٢) لسان العرب مادة(طرف)

قوة اللفظ لقوة المعنى

هذا الباب وثيق الصلة بالدراسات البلاغية التى تعتمد على سلامة الذوق، ورقة الإحساس لما فيه من تأثر المعنى باللفظ قوة ، وضعفا ، مع أنه لم ينبه إلى جدواه فى الدراسات البلاغية إلا ابن الأثير فى القرن السابع الهجرى، ولن يكن قد اعتمد على كل ماقاله ابن جنى فى هذا الباب ، وقد امتدحه ابن جنى بأنه فصل من العربية حسن، ثم مثل له بقولهم : (خشن) و(اخشوشن) لأن معنى (خشن) دون معنى : (اخشوشن) ، لما فيه من تكرير العين وزيادة الواو ، وبقول عمر — رضى الله عـــنه — : «اخشوشنوا ، وتمعددوا» ، أى أصلبوا ، وتشاهوا فى الخشـنة ، وبقولهم . أعشب المكان ، فإذا أرادوا ، كثرة العشب فيه قالوا : اعشوشب ، وبقولنا : حلا ، واحلولى ، وخلق ، وأخلولق ، وغدن ، وأغدودن .

ثم مثل بباب (فعل وافتعل) نحو : (قدر واقتدر) لأن اقتدر أقوى معنى من قولهم : قدر .

وأنت تلاحظ من تمثيله أنه قد جعل الباب شاملا لأمرين هما :

١ — قوة اللفظ لقوة المعنى ، وهو ما يمثله قولهم : (قدر ، وأقتدر) لما ترى من قوة (أقتدر) لشدة النطق بالتاء .

٢ — تكثير اللفظ لتكثير المعنى ، وهو ما يمثـــله قولهم : أعشب المكان ، فإذا أرادوا كثرة العشب فيه قالوا : أعشوشب.

وقد طبق ابن جنى على هذين المبدأين ما تيسر له من القرآن الكريم : أو من فصيح الشعر العربى .

أما ما جاء من قوة اللفظ لقوة المعنى فى القرآن الكريم : فقول

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الله تعالى : «أخذ عزيز مقتدر»(١) ، فمقتدر هنا ، أوفق من قادر ، من حيث كان الموضع لتفخيم الأمر ، وشدة الأخذ(٢) ، وهو بهذا يشير إلى أن لكل معنى ما يناسبه من الألفاظ ، لأن مقام الترهيب يغاير مقام الترغيب ، فللأول شدة الألفاظ وقوتها ، وللآخر لين الألفاظ وسهولتها .

ولهذا قال : وعليه — عندى — قول الله — عز وجل — : « لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت »(٣) وتأويل ذلك : أن كسب الحسنة بالإضافة إلى اكتساب السيئة ، أمر يسير ، ومستصغر ، والدليل على هذا : قوله الله تعالى : « من جاء بالحسنة ، فله عشر أمثالها ، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها »(٤) .

فقد صغرت الحسنة بالإضافة إلى جزائها ، صغر الواحد إلى العشرة ، ولما كان جزاء السيئة إنما هو بمثلها ، لم تحتقر إلى الجزاء عنها ، فعلم بذلك قوة فعل السيئة ، على فعل الحسنة ، ولذلك قال — تبارك وتعالى — : « تكاد السموات يتفطرن منه ، وتنشق الأرض ، وتخر الجبال هدا ، أن دعوا للرحمن ولداً »، ولما كان فعل السيئة ذاهبا بصاحبه ، إلى هذه الغاية البعيدة المترامية ، عظم قدرها وفخم لفظ العبارة عنها ، فقيل : « لها ما كسبت ، وعليها ما اكتسبت » ، فزيد فى لفظ فعل السيئة ، وأنقص من لفظ فعل الحسنة .

فأساس صغر الحسنة — عند ابن جنى — إنما هو بالمقارنة بينها وبين جزائها ، فلما كان جزاؤها عشرة أمثالها ، كانت صغيرة بالنسبة له ، وأساس عظم السيئة — عنده أيضا — إنما هو بالمقارنة بينها وبين جزائها ، ولما كان جزاء السيئة إنما هو مثلها ، كانت كبيرة بالنسبة له ، لأن منها ما يذهب

(١) القمر ٤٦ (٢) الخصائص ٣/٢٦٥
(٣) البقرة ٢٨٦ (٤) الأنعام ١٦٠

بصاحبه إلى غاية بعيدة مترامية ، كالذى فى قوله تعالى: «تكاد السموات يتفطرن منه ، وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا ، أن دعوا للرحمن ولداً »(١) .

وقد يكون فى خفة النطق بلفظة (كسبت) وشدته بلفظة (اكتسبت) مايشير إلى سهولة طرق الخير ، ويسر العمل بها ، ووعورة طرق الشر ، وشدة العمل بها ، لما يرتكب فيها صاحبها من أخطاء ، ويقترف من أخطار ، ويتحمل من آثام .

وكذلك توحى خفة النطق (بالحسنة) إلى سهولة عملها ، ويسره ، كما توحى شدة النطق (بالسيئة) إلى شدة المعاناة فى اقترافها .

وأما ما مثل به ابن جنى لقوة اللفظ لقوة المعنى فهو بيت الكتاب :

إنا اقتسمنا خطتينا فحملت برة ، واحتملت فجار

حيث عبر عن البر بالحمل ، وعن الفجرة بالاحتمال ، ثم قال : وهذا هو ما قلناه فى قوله — عز وجل — : «لها ما كسبت ، وعليها ما اكتسبت» لافرق بينهما .

وأما ماجاء من تكثير اللفظ لتكثير المعنى : فقولهم : رجل جميل ، وضيء ، فإذا أرادوا المبالغة فى ذلك قالوا : وضاء ، وجمال ، فزادوا فى اللفظ هذه الزيادة ، لزيادة معناه ، قال الشاعر :

وامرء يلحقه بفتيان الندى خلق الكريم ، وليس بالوضاء

(١) مريم ٩٠ ، ٩١

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وقال :

تمشى بجهم حسن ملاح أجسم حتى م بالصباح

وقال :

منه صفيحة وجه غير جهال

وكذلك حسن ، وحسان ، يقول الشماخ :

دار الفتاة التى كنا نقول لها :
ياظبية عطلا ، حسانة الجيد

ومنه قولك : قطع ، وقطع . وقام الفرس ، وقومت الخيل ، ومات البعير ، وموتت الإبل .

فأما قولهم (خطاف) — فإنه — وإن كان اسما — لاحق بالصفة فى إفادة معنى التكثير ، لأنه موضوع لكثرة الإختطاف به .

وكذلك قولهم : (سكين) إنما هو موضوع لكثرة تسكين الذابح به ، وكذلك : البزاز ، والعطار ، والقصار ، ونحو ذلك ، إنما هى لكثرة تعاطى هذه الأشياء ، وإن تكن مأخوذة من الفعل .

ويلحق بتكثير اللفظ لتكثير المعنى : العدول عن معتاد حال اللفظ :

ومثل هذا : (فعال) فى معنى (فعيل) ، نحو : طوال ، فهو أبلغ من طويل ، وعراض ، فهو أبلغ معنى من عريض ، لأنه لما كانت فعيل هى الباب المطرد وأريدت المبالغة ، عدل إلى (فعال).

وسر هذا الباب الذى تضمن قوة اللفظ لقوة المعنى ، وتكثيرة اللفظ

لتكثير المعنى ، راجع إلى أن الألفاظ أدلة المعانى ، فإذا ماز يد فيها شىء أوجبت القسمة لزيادة المعنى به ، وكذلك إذا انحرف به عن سمته وهديته كان ذلك دليلا على حادث متجدد له(١) .

وقد أفاد ابن الأثير من هذا الباب فى كتابه : المثل السائر — إفادة كبيرة ، بل إنه جعل «قوة اللفظ لقوة المعنى» هى النوع الثانى عشر من المقالة الثانية فى الصناعة المعنوية(١) ، وبدلا من أن يحمد لابن جنى صنيعه بتنبيه البلاغيين والنقاد ، إلى ناحية مهمة من نواحى نقد الأساليب ، للتعرف على أسرار صياغتها ، وأسباب ، ضعفها ، أو قوتها ، راح يقول : إن ابن جنى لم يورده كما أوردته أنا ، ولم ينبه على ما نبهت عليه من النكت ، وهذا يظهر بالوقوف على كلامى ، وكلامه .

وقد ألم ابن الأثير بكل ما قاله ابن جنى ، ولكنه نبه إلى ما يلى:

أولا : أن هذا الباب إنما يعمد إليه لضرب من التوكيد ، ولا يوجد إلا فيما فيه معنى الفعلية ، كاسم الفاعل ، واسم المفعول ، وكالفعل نفسه ، وذلك كما فى قوله تعالى : « فقلت استغفروا ربكم أنه كان غفاراً » ، لأن غفاراً ، أبلغ فى المغفرة من غافر وقوله تعالى : «إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » ، فالتواب هو الذى تتكرر منه التوبة مرة بعد مرة ، وقوله تعالى : «فكبكبوا فيها هم والغاوون » ، فإن معنى (كبكبوا) من الكب ، وهو القلب ، إلا أنه مكرر المعنى ، وإنما استعمل فى الآية دلالة على شدة العقاب ، لأنه موضع يقتضى ذلك .

وليس من هذا الباب : زيادة التصغير ، لأن الزيادة فى الألفاظ لا توجب زيادة فى المعانى إلا إذا تضمنت معنى الفعلية .

---

(١) الخصائص ٣/٢٦٨ (٢) المثل السائر ١٩٠

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ثانياً : قد يستعمل هذا الباب فى مقام المبالغة ، فينعكس المعنى فيه إلى ضده كما جاء لأبى كرام التميمى من شعراء الحماسة :

لله تيم أى ريح طراد
لاقى الحمام ، وأى فصل جلاد
ومحش حرب مقدم متعرض
للموت غير مكذب ، حياد

فقد أراد الشاعر بلفظة (حياد) المبالغة فى وصف شجاعة هذا الرجل فانعكس عليه المقصد ، لأنه نفى كثرة الحيدودة عنه ؛ فيكون بهذا حائداً وإذا وجدت منه مرة واحدة كان جبنا لاشجاعة. وكان الأولى أن يقول: غير مكذب حائد .

ثالثا : إذا وردت لفظة تحتمل التضعيف الذى هو طريق المبالغة ، وتحتمل غيره ، فإن أقتضى المقام حملها على المبالغة كان ذلك أولى.

رابعاً : إن قوة اللفظ لقوة المعنى، لاتستقيم إلا فى نقل اللفظ من صيغة إلى صيغة أكثر منها ، كنقل الثلاثى إلى الرباعى ، وإلا فإذا كانت صيغة الرباعى مثلا موضوعة لمعنى فإنه لايراد به ما أريد من نقل الثلاثى إلى مثل تلك الصيغة وذلك كما فى قول الله تعالى: «وكلم الله موسى تكليما» فإن كلم على وزن قتل ولم يرد به التكثير ، ومن هنا شذ قولهم فى (عليم) إنه أبلغ من (عالم) لأن كلا منهما أربعة أحرف ، وليس بينهما زيادة ينقل فيها الأدنى إلى الأعلى .

الإيجاز والإطناب

جاء حديث ابن جنى عن الإيجاز والإطناب ؛ من خلال حديثه عن الفرق بين الكلام والقول ، فى باب عقده لهذا الغرض(١) .

فأصل الكلام : أن يكون مفيدا مستقلا بنفسه ، ويشهد لهذا قول كثير :

لو يسمعون — كما سمعت — كلامها
خروا لعزة ركعاً وسجوداً

ومعلوم أن الكلمة الواحدة لا تشجو ، ولا تحزن ، ولا تملك قلب السامع ، وإنما ذلك فيما طال من الكلام، وأمتع سامعيه بعذوبة مستمعه، ورقة حواشيه .

فالكلام إذاً من بيت كثير إنما يعنى به المفيد من هذه الألفاظ، القائم برأسه ، المتجاوز لما لايفيد ، ولا يقوم برأسه من جنسه .

وقد جاء فى أشعارهم مايدل على وصف الحديث بالإطناب، كالذى تراه فى قول الآخر :

ولما قضينا من منى كل حاجة
ومسح بالأركان من هو ماسح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا
وسالت بأعناق المطى الأباطح

فقوله : بأطراف الأحاديث يعلم منه أنه لا يكون إلا جملا ، كثيرة ، فضلا عن الجملة الواحدة.

---

(١) الخصائص ١/٢٧

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

كما أنه قد جاء ما يدل على وصف الحديث بغاية الإيجاز ، كالذى تراه فى قول الشنفرى :

كأن لها فى الأرض نسياً تقصه
على أمها ، وإن تخاطبك تبلت

أى تقطع كلامها ، ولا تكثره .

كما أنه قد جاء فى وصفهم للحديث بأنه وسط بين الإيجاز والإطناب ، كالذى تراه فى قول ذى الرمة :

لها بشر ، مثل الحرير ، ومنطق
رخيم الحواشى ، لاهراء ولا نزر

إلا أنه على أية حال ، لايكون ما يجرى منه — وإن قل ونزر — أقل من الجمل التى هى قواعد الحديث ، الذى يشوق موقعه ، ويروق مستمعه .

وإطلاق الحديث على ما طال من الكلام ، أمر صار معلوماً ، غير مشكوك فيه ، ألا ترى إلى قوله :

وحديثها ، كالغيث يسمعه
راعى سنين تتابعت جدبا !
فأصاخ يرجو أن يكون حيا
ويقول — من فرح — هيا ربا

يعنى حنين السحاب وسجره ، وهذا لا يكون عن نبرة ، واحدة ، ولا رزمة مختلسة وإنما يكون مع البدء فيه والرجع ، وتثنى الحديث على صفحات السمع .

وقول ابن الرومى :

وحديثها السحر الحلال لو أنه
لم يجن قتل المسلم المتحرز
إن طال لم يملل ، وإن هى أوجزت
ود المحدث أنها لم توجز
شرك القلوب ، وفتنة مامثلها
للمطمئن ، وعقلة المستوفز

فذكر ابن الرومى هنا : أنها تطيل فى الحديث تارة ، وتوجز فيه أخرى .

والإطالة ، والإيجاز جميعا ، إنما هما فى كلام مفيد مستقل بنفسه : ولو بلغ بها الإيجاز غايته لم يكن له بد من أن يعطيك تمامه وفائدته ، مع أنه لابد فيه من تركيب الجملة ، فإن نقصت عن ذلك لم يكن هناك استحسان ولا استعذاب .

فقد ذكر ابن جنى إذاً مصطلحى : الإيجاز ، والإطناب ، ولكنه عبر عن الإطناب بالإطالة ولم يذكر مصطلح : المساواة الذى نجده عند ابن رشيق(١) ؛ ويمكن أن نفهمها عنده على أنها أصل الكلام ، الذى لا يوصف بالاطناب ، ولا بالإيجاز ، على أن يكون مفيدا ، مستقلا بنفسه كالشرط . كما يمكن أن نفهمها عنده من استشهاده بقول ذى الرمة (لاهراء ولانزر)

وابن جنى وإن لم يكون قد خصص بابا للإيجاز ، والإطناب ؛ إلا أنه يمكن أن يضم إلى الإطناب عنده باب الاعتراض ، وباب الاحتياط ، وقد جمع فيه احتياط العرب للمعانى بالتأكيد اللفظى ؛ والمعنوى ، ثم بالتأكيد بالصفة

كما أنه يمكن أن ينضم إلى الإيجاز عنده باب الحذف .

وقد اشترط ابن جنى لحسن الإيجاز أمران :

(١) العمدة ١/٢٥٠

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

أولهما : أن يكون الكلام مفيدا . وثانيهما أن يكون مستقلا بنفسه. ولهذا فإن ماجاء منه ناقصاً عن تركيب جملة فإنه لا يوصف بالحسن ؛ ولا بالقبح . كقوله :

قلنا لها : قِفي لنا قالت : قاف

وقول الآخر فيما حكاه سيبويه : « ألاتا » فيقوله مجيبه : « بلى فا »

وأما قول مالك بن أسماء :

أذكر من جارتي ومجلسها طرائفا من حديثها الحسن
ومن حديث يزيدني مقة ماالحديث الموموق من ثمن

فإنه أدل على أن هنالك إطالة ، وتماما، وإن كان بغير حشو ولا خطل ألا ترى إلى قوله : « طرائفا حديثها الحسن » ، فهذا لايكون مع الحرف الواحد، ولا الكلمة الواحدة بل لايكون مع الجملة الواحدة دون أن يتردد الكلام ، وتتكرر فيه الجمل ، فيبين ماضمنه من العذوبة ومافى أعطافه من النعمة ، والليونة »(١)

(١) الخصائص ٣/ ٣١

الإيجاز بالحذف

جعل أبو الفتح ابن جنى موضوع الحذف داخلا فى باب أسماه «شجاعة العربية» ؛ وقد ضمنه الحذف ، والزيادة ، والتقديم والتأخير ، والحمل على المعنى ، والتحريف(١)

وقد أطلق أبو الفتح على تلك الأمور ، شجاعة العربية . لأن الشاعر أو الأديب لايتجشمها ، إلا إذا كان واثقا من مقدرته على الفصحى ، وسيطرته عليها ، فكان كالفارس الشجاع الذى يتحمل من المخاطر مالا يتحمله غيره : وكانت تلك الأمور من الحذف والزيادة ، والتقديم والتأخير وغيرها مظهراً من مظاهر شجاعته .

ويقرب من هذا المعنى ماقاله فى «الفروق والفصول» : فمتى رأيت الشاعر قد ارتكب مثل هذه الضرورات على قبحها ، وانخراق الأصول بها - فاعلم أن ذلك على ماجشمه منه ، وإن دل من وجه على جوره وتعسفه ، فإنه من وجه آخر مؤذن بضيالة وتخمطه ، وليس بقاطع على ضعف لغته ولا قصوره عن اختياره الوجه الناطق بفصاحته ، بل مثله فى ذلك عندى مثل مجرى الجموح بلاجام ووارد الحرب الضروس حاسرا من غير احتشام فهو ؛ وإن كان ملوما فى عنفه وتهالكه ، فإنه مشهود له بشجاعته وفيض منته ، ألا تراه لايجهل أن لو تكفر فى سلاحه ، أو أعصم بلجام جواده ، لكان أقرب إلى النجاة . وأبعد من الملحاة ، ولكنه جشم ماجشمه على علمه بما يعقب اقتحام مثله ؛ إدلالا بقوة طبعه . ودلالة على شهامة نفسه(٢) ؟!»

(١) الخصائص ٢/ ٣٦٠
(٢) الخصائص ٢/ ٣٩٢

إهداء من شبكة الألوكة www.alu...

أنواع الحذف :

وقد بين أبو الفتح هنا: أن العرب قد حذفت الجملة، والمفرد، والحرف، والحركة، وأنه لا يحذف شيء من ذلك إلا إذا دل دليل على المحذوف، وإلا لكان فيه ضرب من تكليف علم الغيب فى معرفته :

١ — حذف الجملة :

ويمكن تقسيم حذف الجملة عنده إلى قسمين :

القسم الأول : حذف الجملة الإنشائية : وقد أتى منه ما يلى :

(أ) جملة القسم : وذلك نحو قولهم . والله لافعلت وتالله لقد فعلت، وأصله : أقسم بالله ، فحذف الفعل والفاعل ، وبقيت الحال — من الجار والجواب — دليلا على الجملة المحذوفة .

(ب) الأمر : نحو قولك : زيداً — إذا أردت : اضرب زيداً — .

(ح) النهى : نحو : إياك ، إذا حذرته ، أى إحفظ نفسك ولا تضيعها، ونحو : الطريق الطريق ؛ أى الزم الطريق ؛ ولا تحد عنها .

(د) التحضيض : نحو : هلا خيرا من ذلك ؟ ، أى هلا فعلت خيرا من ذلك ؟ .

والقسم الثانى : هو : حذف الجملة الخبرية وقد أتى منه ما يلى:

(أ) جملة الفعل والفاعل، نحو: القرطاس والله ، أى: أصاب القرطاس، خير مقدم ، أى قدمت خير مقدم

(ب) جملتا الشرط والجواب : وذلك نحو قوله : (الناس مجزيون بأفعالهم ؛ إن خيراً فخيراً ، وإن شراً فشراً) ، أى : إن فعل المرء خيراً جزى خيراً ، وإن فعل شراً ، جزى شراً

(ج) جملة المعطوف عليه : وذلك كما فى قوله تعالى : «فقلنا أضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا»(١)، أى : فضرب، فانفجرت ومنه قوله تعالى : «فمن كان منكم مريضاً ، أو به أذى من رأسه ففدية»(٢) أى : فحلق فعليه فدية .

٢ — حذف المفرد :

وأما حذف المفرد، فقد جعله ابن جنى على ثلاثة أضرب : حذف الاسم وحذف الفعل وحذف الحرف .

الضرب الأول : حذف الاسم : وقد جاء منه ما يلى :

١ — حذف المبتدأ: ومنه قول الله تعالى: «كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ»(٣) ، أى : ذلك بلاغ ، أو هذا بلاغ ، وهو كثير .

٢ — حذف الخبر : وذلك نحو قولهم فى جواب من عندك : زيد ، أى : زيد عندى . ومنه قول الله تعالى: «طاعة وقول معروف»(٤)، يقول ابن جنى : إن شئت كان على : طاعة وقول معروف ، أمثل من غيرهما ، وإن شئت كان على : أمرنا طاعة وقول معروف، وهو يعنى بهذا، إما أن يكون من حذف المبتدأ ، وإما أن يكون من حذف الخبر. فالمعنى يحتمل الأمرين معاً .

---

(١) البقرة ٦٠ (٢) البقرة ١٩٦
(٣) الأحقاف ٣٥ (٤) محمد ٢١

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

والمستدل على الاحتمال الثاني بقول عمر بن أبي ربيعة :

فقالت : على اسم الله أمرك طاعة ... وإن كنت قد كلفت مالم أعود

٣ ـ حذف المضاف : وجعل منه قول الله تعالى : « ولكن البر من اتقى »(١) ، أي : بر من اتقى ثم قال : وإن شئت كان تقديره : ولكن ذا البر من اتقى ، والأول أجود ، لأن حذف المضاف ضرب من الاتساع ، والخبر أولى بذلك من المبتدأ ، لأن الاتساع بالإعجاز أولى منه بالصدور .

وسواء أكان المعنى : ولكن ذا البر ، أو كان المعنى : بر من أتقى ، فإنه يكون من باب حذف المضاف .

ومن حذف المضاف قول الله تعالى : واسئل القرية»(٢)، أي أهلها .

ومن حذف المضاف مكرراً : قول الله تعالى : « فقبضت قبضة من أثر الرسول»(٣) ، أي من تراب أثر حافر الرسول .

ومنه «سئلة الكتاب(٤)» (أنت مني فرسخان)» أي ذو مسافة فرسخين.

ومنه قوله ـ جل اسمه ـ ينظرون إليك تدور أعينهم ، كالذي يغشى عليه من الموت»(٥) ، أي : كدوران عين الذي يغشى عليه من الموت.

٤ ـ حذف المضاف إليه : نحو قوله تعالى : « لله الأمر من قبل ، ومن بعد »(٦) ، أي : من قبل ذلك ومن بعده .

ومنه قول أبي النجم العجلي :

أقب من تحت عريض من عل

أي : أقب من تحته ، عريض من عاليه .

(١) البقرة ١٧٧ (٢) يوسف ٨٢
(٣) طه ٩٦ (٤) الكتاب لسيبويه ١/٢٠٦
(٥) الأحزاب ١٩ (٦) الروم ٤

٥ ـ حذف الموصوف : وحينئذ تقوم الصفة مقامه ، وأكثر ما يكون ذلك في الشعر .

والسر في كثرته في الشعر والنثر : أن القياس يكاد يحظره ، لأن الصفة في الكلام على ضربين : إما أن تكون للتخليص والتخصيص ، وإما أن تكون للمدح والثناء ، وكلاهما من مقامات الإسهاب والإطناب ، لا من مظان الإيجاز والاختصار ، وإذا كان كذلك ، لم يلق الحذف بالنثر ، ولا تخفيف اللفظ به .

أضف إلى هذا ما يوهمه من اللبس ، وأنه مخالف للبيان ، لأنك إذا قلت : مررت بطويل، لم يستبن من ظاهر هذا اللفظ، إن المرور به إنسان دون رمح ، أو ثوب ، أو نحو ذلك .

ولهذا لا يحذف الموصوف إلا إذا قام الدليل عليه ، أو شهدت الحال به ، وكلما استبهم الموصوف كان حذفه غير لائق بالحديث .

ومما يؤكد ضعف حذف الموصوف ، وإقامة الصفة مقامه : أنك تجد من الصفات ما لا يمكن حذف موصوفه ، وذلك كأن تكون الصفة جملة ، نحو : مررت برجل قام أخوه ، ولقيت غلاما وجهه حسن ، فلو قلت : مررت بقام أخوه ، أو : لقيت وجهه حسن، لم يحسن(١) .

وكذلك إن كانت الصفة جملة لم يجز أن تقع فاعله ، ولا مقامة مقام الفاعل ، لأنك لا تجيز :(قام وجهه حسن) ولا (ضرب قام غلامه)، وأنت تريد : قام رجل وجهه حسن وضرب إنسان قام غلامه .

وكذلك إن كانت الصفة حرف جر ، أو ظرفاً ، لا يستعمل استعمال الأسماء ، فلو قلت : جاءني من الكرام ، أو حضرني سواك ، أي إنسان سواك ، لم يحسن ، لأن الفاعل لا يحذف .

(١) الخصائص ٢/٣٦٦

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ومن قيام الصفة — وهى جملة — مقام الموصوف المبتدأ ، قول حكيم ابن معية الربعى :

لو قلت : ما فى قومها لم تيثم
يفضلها فى حسب وميسم

أى : ما فى قومها أحد يفضلها .

ومنه قول الله تعالى : « وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك » ، أى : قوم دون ذلك .

٦ — حذف الصفة ، ودلالة الحال عليها :

ويشترط لحذف الصفة : أن تدل الحال عليها ، ومن ذلك ما حكاه سيبويه(١) : من قولهم : سير عليه ليل ، وهم يريدون ليل طويل ، وكأن هذا إنما حذفت فيه الصفة لما دل من الحال على موضعها ، لأنك تحس فى كلام القائل لذلك من التفخيم والتعظيم ما يقوم مقام قوله طويل ، أو نحو ذلك .

يقول ابن جنى : وأنت تحس من نفسك إذا تأملته ، وذلك أن تكون فى مدح إنسان والثناء عليه ، فتقول : كان والله رجلا ! فتزيد فى قوة اللفظ (بالله) هذه الكلمة ، وتمكن فى تمطيط اللام ، وإطالة الصوت بها وعليها أى : رجلا فاضلا أو شجاعاً ، أو كريما ، أو نحو ذلك .

وكذلك تقول : سألناه فوجدناه إنسانا ! وتمكن الصوت بإنسان وتفخمه ، فيستغنى بذلك عن وصفه ، بقولك : إنساناً سمحاً ، أو جواداً ، أو نحو ذلك .

وكذلك إن ذممته ، ووصفته بالضيق ، قلت : سألناه وكان إنسانا !

(١) الكتاب لسيبويه ١١٥/١

وتزوى وجهك وتغطيه ، فيغنى ذلك عن قولك : إنساناً لئيما ، أو لجزاً ، أو مبخلا ، أو نحو ذلك .

ومن هنا أخذ المتأخرون من البلاغيين أن تنكير المسند قد يكون للتعظيم ، والتكثير ، وقد يكون للتحقير والتقليل(١) .

٧ — حذف المفعول :

وقد حذف المفعول به فى قوله تعالى : « وأوتيت من كل شىء »(٢) ، أى : أوتيت منه شيئاً ، ومنه قوله تعالى : « فغشاها ما غشى »(٣) ، أى : غشاها إياه ، فحذف المفعولين جميعا .

ومنه قول الحطيئة :

منعمة تصون إليك منها كصونك من وراء شرعبى

أى : تصون الحديث منها .

٨ — حذف الظرف : وذلك نحو قول طرفة :

فإن مت ، فانعينى بما أنا أهله
وشقى على الجيب يا ابنة معبد

ومن ذلك ما يروى فى الحديث الشريف : « لا صلاة لجار المسجد إلا فى المسجد » أى : لا صلاة كاملة ، أو فاضلة ، ونحو ذلك .

ومنه قول نصيب(٤) :

أهيم بدعد ما حييت فإن أمت أوكل بدعد من يهيم بها بعدى !

(١) الإيضاح ٥٨ (٢) النمل ٢٣ (٣) النجم ٥٤
(٤) الموشح ١٦٠ ، ١٨٩ والأغانى ١٩/١١ ، ١٧٤/١٤ طبعة بولاق .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أي : فإن أمت قبلها .

ومنه قول الله تعالى : « فمن شهد منكم الشهر فليصمه »(٢) .

٩ — حذف المعطوف : ومنه ما رواه ابن جني عن أحمد بن يحيى : أنهم يقولون : (راكب الناقة طليحان) . أي راكب الناقة والناقة طليحان .

١٠ — حذف المعطوف عليه : تقول : الذي ضربت وزيداً جعفر ، تريد : الذي ضربته وزيداً ، فتحذف المفعول من الصلة .

١١ — حذف المستثنى : نحو قولهم : جاءني زيد ليس إلا ، وليس غيره . أي : ليس إلا إياه ، وليس غيره .

١٢ — حذف خبر إن مع النكرة : نحو قول الأعشى :

إن محلا ، وإن مرتحلا وإن في السفر إذ مضوا مهلا

أي : إن لنا محلا ، وإن لنا مرتحلا .

وقد جاء حذف خبر إن مع المعرفة ـ أيضاً .

يقول ابن جني : وأصحابنا يجيزون حذف « إن » مع المعرفة ، ويحكون عنهم ، أنهم إذا قيل لهم : إن الناس إلب عليكم ، فمن لكم ؟ قالوا : (إن زيداً ، وإن عمراً) أي : إن لنا زيداً ، وإن لنا عمراً ، والكوفيون يأبون حذف خبرها إلا مع النكرة .

١٣ — حذف أحد مفعولي ظننت :

وذلك نحو قولهم : أزيداً ظننته منطلقاً ؟ لأن تقديره : أظننت زيداً منطلقاً ، ظننته منطلقاً ؟ فلما أضمرت الفعل فسرته بقولك : ظننته ، وحذفت

(٢) البقرة ١٨٥ .

المفعول الثاني من الفعل الأول المقدر ، اكتفاء بالمفعول الثاني الظاهر في الفعل الآخر ، وكذلك بقية أخوات ظننت .

١٤ — حذف خبر « كان » :

وذلك كما في قول الفرزدق يهجو جريراً(١) :

أكران كان ابن المراغة إذ هجا
جريرا ببطن الشام أم متساكر ؟!

أي : أكان سكران ابن المراغة ، فلما حذف الفعل الرافع فسره بالثاني فقال : كان ابن المراغة ، وابن المراغة هذا الظاهر ، خبر (كان) الظاهرة وخبر كان المضمرة محذوف معها ، لأن كان الثانية دلت على الأولى ، وكذلك الخبر الثاني الظاهر دل على الخبر الأول المحذوف .

١٥ — حذف المنادى :

وذلك فيما أنشده أبو زيد ، من قوله :

فسير نحن عند الناس منكم
إذا الداعي المثوب قال : يالا

أراد : يالبني فلان ، ونحو ذلك .

١٦ — حذف التمييز : وذلك إذا علم المراد منه ، نحو قولك : عندي عشرون ، واشتريت ثلاثين ، وملكت خمسة وأربعين : فإذا لم يعلم المراد لزم التمييز ، إذا قصد المتكلم الإبانة ، فإن لم يرد ذلك ، وأراد الإلغاز ، وحذف جانب البيان ، لم يوجب على نفسه ذكر التمييز ، وهذا متوقف على غرض المتكلم .

(١) خزانة الأدب للبغدادي ٦٥ ، والكتاب ١/٢٣ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الضرب الثانى : حذف الفعل :

وحذف الفعل يأتى على ضربين :

أحدهما : أن تحذفه والفاعل فيه ، فإذا وقع ذلك فهو من حذف الجملة .

والآخر : أن تحذف الفعل وحده ، وهو المقصود هنا .

وذلك : أن يكون الفاعل مفصولا عنه مرفوعا به ، وذلك نحو قولك أزيد قام ؟ فزيد مرفوع بفعل مضمر محذوف حال من الفاعل ، لأنك تريد : أقام زيد ؟ فلما أضمرته فسرته بقولك : قام .

ومنه قول الله تعالى : « إذا السماء انشقت »(١) وقوله تعالى : « إذا الشمس كورت »(٢) وقوله تعالى : « إن امرؤ هلك »(٣) وقوله تعالى : « لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى »(٤) ونحوه .

فالفعل فيه مضمر وحده ، أى : إذا انشقت السماء ، وإذا كورت الشمس وإن هلك امرؤ . ولو تملكون(٥) .

ومنه قول ذى الرمة(٦) :

إذا ابن أبى موسى بلال بلغته ... فقام بفأس بين وصلك جازر

أى : إذا بلغ ابن أبى موسى .

الضرب الثالث :

حذف الحرف : وهو مبحث صرفى تحدث عنه ابن جنى وليس من مجال بحثنا هذا .

(١) الانشاق : ١ . (٢) التكوير : ١ (٣) النساء : ١٧٦ .
(٤) الإسراء : ١٠٠ . (٥) الخصائص ٢/٣٨٠ .
(٦) ديوان ذى الرمة ٢٥٣ والخزانة ١/٤٥٠ والكتاب ١/٤٢ .

إفادة البلاغيين من موضوع «الحذف»

جعل ابن جنى - كما رأيت - موضوع الحذف تحت ما أسماه : « شجاعة العربية »(١)، وقد قصد بذلك أن الشاعر أو الأديب إذا ترك ماهو الأصل فى الكلام ، وهو الذكر وتجشم الحذف - بعد أن ينصب له قرينة تدل عليه ، أو تدل عليه الحال - فهو إنما يعمد إلى ذلك لفقهه التامة فى معرفته بأسرار اللغة ، وتمكنه من إمتلاك ناصيتها ، فاللجوء إلى الحذف ، وإلى غيره مما ذكره ابن جنى مظهر من مظاهر الشجاعة فى اللغة العربية !

ولهذا تتبع ما ورد عن العرب الفصحاء ، ممن يعتد بلغتهم ، ويحتج بأقوالهم ، ويستشهد بأشعارهم ونثرهم ، وأثبت كثيراً مما جاء عنهم من حذف الجمل ، أو المفردات أو الحروف !

وكان أبو هلال العسكرى المتوفى سنة ٣٩٥ هـ معاصراً لابن جنى ، فقسم المجاز إلى قسمين: إيجاز القصر وإيجاز الحذف ، وعرف إيجاز القصر : بأنه : تقليل الألفاظ وتكثير المعانى ، كما فى قول الله تعالى ، « ولكم فى القصاص حياة » ، وازن بين هذا القول الكريم ، وبين قول العرب : (القتل أنفى للقتل) مبينا أن الآية الكريمة تزيد على قول العرب فى الفائدة وهى: أبانة العدل لذكر القصاص، وإظهار الغرض المطلوب بذكر الحياة، واستدعاء الرغبة والرهبة لحكم الله به ، ولأنه أقل حروفا ، ولبعده عن الكلفة بالتكرير ، وحسن التأليف ، وشدة التلاؤم المدرك بالحس .

(١) الخصائص ٢/٣٦٠

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وأما إيجاز الحذف : فقد ذكر أنه على وجوه، وذكر منها :

١ — أن يحذف المضاف ويقام المضاف إليه مقامه ، ويجعل الفعل له ، كقول الله تعالى : (واسأل القرية) أى: أهلها ، وكقوله تعالى: « وأشربوا في قلوبهم العجل » أى حبه ، وقال الشاعر :

لهم مجلس صهب السبال أذلة سواسية أحرارها وعبيدها

أى أهل المجلس .

٢ — أن يوقع الفعل على شيئين وهو لأحدهما ، ويضمر للآخر فعله ، كقوله تعالى : « فأجمعوا أمركم وشركاءكم » معناه : وادعوا شركاءكم .

٣ — أن يأتى الكلام على أن له جوابا فيحذف الجواب اختصاراً لعلم المخاطب ، كقوله تعالى ، « ولو أن قرآنا سيرت به الجبال ، أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى بل لله الأمر جميعا » ، أراد : لكان هـذا القرآن .

٤ — حذف جواب القسم : كقوله تعالى : « ق والقرآن المجيد ، بل عجبوا » ، معناه : لتبعثن .

٥ — حذف (لا) من الكلام ، كقوله تعالى « يبين الله لكم أن تضلوا » أى : لأن لا تضلوا .

٦ — ومن الحذف أن تضمر غير مذكور ، كقوله تعالى ، « حتى توارت بالحجاب » يعنى الشمس .

٧ — حذف (من) كقوله تعالى: « واختار موسى قومه سبعين رجلا » أى من قومه .

٨ — ومنه : قول الله تعالى : « فبأى آلاء ربكما تكذبان » ، وذكر قبل ذلك الإنسان ولم يذكر الجان ثم ذكره .

ثم ذكر من الحذف الرديء : قول الحرث بن حلزة :

والعيش خير في ظلال النوك من عاش كدا

وإنما أراد : والعيش الناعم خير في ظلال الحق من العيش الشاق في ظلال الجهل (١) .

ولهذا فإن إمام البلاغة عبدالقاهر الجرجاني ينوه بشأن الحذف قائلا: هو باب دقيق المسلك ، لطيف المأخذ ، عجيب الأمر ، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق ، وأتم ما تكون بيانا إذا لم تبين(٢)، بل إنه ليبلغ به الأمر من افتتانه بهذا الباب إلى أن يقول : رب حذف هو قلادة الجيد ، وقاعدة التجويد (٣) !

وهو لا يقف عند هذا الحد ، بل إنه ليحاول أن يكشف القناع عن سر بلاغة الحذف ، فيتساءل : هل الحذف مجاز ؟ أم لا ؟

ثم يتولى الإجابة بأن الكلمة كما توصف بالمجاز ، لانتقالك بها عن معناها، فقد توصف به لانتقالها عن حكم كان لها، إلى حكم ليس هو بحقيقة فيها ، ومثال ذلك أن المضاف إليه يكتسى إعراب المضاف في نحو قوله تعالى: « واسأل القرية » والأصل واسأل أهل القرية ، فالحكم الذي يجب للقرية في الأصل وعلى الحقيقة هو الجر ، والنصب فيها مجاز (٤) .

(١) الصناعتين ١٩٥ (٢) دلائل الإعجاز ١١٢
(٣) دلائل الإعجاز ١١٦ (٤) أسرار البلاغة ٣٣٢

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وإذا كان تقدير المحذوف ، لا يعلم إلا بما يدل عليه ، فقد حدده الإمام بواحد من أمرين :

أحدهما : أن يكون الداعي إلى تقدير المحذوف أمراً يرجع إلى غرض المتكلم ، كما في قولك : (سل القرية) — في غير التنزيل — فإنك لا تقطع بأن ههنا محذوفا ، لجواز أن يكون كلام رجل مر بقرية ، قد خربت ، وباد أهلها ، فأراد أن يقول لصاحبه واعظاً ، ومذكراً ، أو لنفسه متعظاً ومعتبراً : سل القرية عن أهلها ، وقل لها : ماصنعوا ؟ على حد قولهم : سل الأرض : من شق أنهارك ، وغرس أشجارك ، وجنى ثمارك ، فإن لم تجبك حواراً ، أجابتك اعتباراً .

والآخر : أن يكون الداعي إلى تقدير المحذوف ، إنما هو الكلام نفسه ، لأغرض المتكلم به وذلك : كأن يكون المحذوف أحد جزئي الجملة ، كالمبتدأ ، في نحو قوله تعالى : « فصبر جميل » وقوله تعالى : «متاع قليل» فلا بد من تقدير محذوف ، وذلك لأن الإسم الواحد لا يفيد ، والصفة والموصوف حكمهما حكم الإسم الواحد (١) .

ثم ركز عبد القاهر على حذف المبتدأ ، وحذف المفعول ، وأخرج منهما طرائف ، ولطائف لم يتطرق إليها ابن جني ، وان كان ابن جني صاحب فضل في الإشارة إلى أهمية موضوع الحذف من بين الأساليب العربية .

ومما يدلك على تأثر عبد القاهر بابن جني في موضوع الحذف : أن ابن جني — في حديثه عن حذف الفعل — قال : « وذلك نحو : زيداً

(١) أسرار البلاغة ٣٣٨

ضربته ، لأنك أردت : ضربت زيداً ، فلما أضمرت ضربت ، فسرته بقولك : ضربته » (١) .

فألم عبد القاهر بهذا الموضوع ، وأحسن الإفادة منه ، فسماه : الإضمار على شريطة التفسير — أخذا من قول ابن جني : فلما أضمرت « ضربت » فسرته ..) .

ومثل لذلك بقولهم : أكرمني وأكرمت عبد الله ، أردت ، أكرمني عبد الله وأكرمت عبد الله ، ثم تركت ذكره في الأول استغناء بذكره في الثاني ، ثم قال :

« فهذا طريق معروف ، ومذهب ظاهر ، وشيء لا يعبأ به ، ويظن أنه ليس فيه أكثر مما تريك الأمثلة المذكورة منه ، وفيه إذا أنت طلبت الشيء من معدنه ، من دقيق الصنعه ومن جليل الفائدة مالا تجده إلا في كلام الفحول (٢) » .

فلما جاء ضياء الدين ابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٧ هـ ، عكف على ماقاله ابن جني في الحذف سواء كان من حذف الجمل ، أو من حذف المفردات ، ووضعه في النوع الخامس عشر من المقالة الثانية ، وهو الإيجاز ، إذ جعل الإيجاز قسمين : إيجازاً بالحذف ، وإيجازا بغير الحذف ، متابعاً أبا هلال العسكري .

ثم ينقل عبارة عبد القاهر التي أسلفناها في بلاغة الحذف — فيقول : أما الإيجاز بالحذف فإنه عجيب الأمر شبيه ، بالسحر ، وذاك أنك

(١) الخصائص ٢/٣٧٩ (٢) دلائل الإعجاز ١٠٧

(٣) المثل السائر ٢/ ٢٦٨

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ترى فيه الحذف أفصح من الذكر ، والصمت عن الافادة أزيد للإفادة ، وتجدك أنطق ماتكون إذا لم تنطق ، وأتم ما تكون مبيناً ، إذا لم تبين (١).

ثم يتثنى إلى موضوع حذف المفعول به فى دلائل الإعجاز فينقله بنصه (٢) تقريبا .

ومما يدلك على إفادة ابن الأثير من ابن جنى فى موضوع الحذف : قوله فى : حذف الموصوف والصفة ، وإقامة كل منهما مقام الآخر :

ولايكون أطراده فى كل موضع ، وأكثره يجىء فى الشعر ، وإنما كانت كثرته فى الشعر دون الكلام المنثور ، لامتناع القياس فى أطراده .

ثم يقول : والصفة تأتى فى الكلام على ضربين :

١ — إما للتأكيد والتخصيص .

٢ — وإما للمدح والذم ، وكلاهما من مقامات الإسهاب والتطويل ، لا من مقامات الإيجاز والإختصار ، وإذا كان الأمر كذلك لم يلق الحذف به . هذا مع مايضاف إليه من الإلتباس ، وأنه ضد البيان .

ألا ترى أنك ، إذا قلت : مررت بطويل ، لم يبن من هذا اللفظ الممرور به ، إنسان هو أم رمح ، أم ثوب ، أو غير ذلك ؟!

وإذا كان الأمر على هذا فحذف الموصوف إنما هو شىء قام الدليل عليه أو شهدت به الحال ، وإذا استبهم كان حذفه غير لائق .

ومما يؤكد ضعف حذفه ، أنك تجد من الصفات مالا يمكن حذف موصوفه ، وذلك أن تكون الصفة جملة ، نحو مررت برجل قام أبوه

(١) المثل السائر ٢/٢٦٨ (٢) المثل السائر ٢/٢٩١ — ٢٩٥

ولقيت غلاماً وجهه حسن : ألا تراك لو قلت : مررت بقام أبوه ، ولقيت وجهه حسن لم يجز (١) ؟ !

وذلك هو نص عبارة ابن جنى فى حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه فى الخصائص (٢) .

ولكن ابن الأثير لم يشر إلى ابن جنى هنا ، لأنه لم يجد مجالا لنقده ، مما يدلك على أن ابن الأثير لم يكن يذكر أحداً أخذ عنه من العلماء ، إلا لنقده ، وبيان تفوقه عليه !

فلما كان الخطيب القزوينى المتوفى سنة ٧٣٩ هـ جعل الإيجاز قسيم الإطناب والمساواة ، وجعله ضربين :

أحدهما : إيجاز القصر ، وهو ماليس بحذف ، كقوله تعالى : « ولكم القصاص حياة » .

والآخر : إيجاز الحذف وهو مايكون بحذف ، والمحذوف إما أن يكون جزء جملة ، وإما أن يكون جملة ، وإما أن يكون أكثر من جملة ، وجزء الجملة إما أن يكون مضافاً ، كقوله تعالى : « واسأل القرية » ، أى : أهلها وإما أن يكون موصوفاً ، كقوله :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا

أى : أنا ابن رجل جلا .

وإما أن يكون صفة ، نحو قوله تعالى : « وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً » ، أى : كل سفينة صحيحة ، أو صالحة ، أو نحو ذلك بدليل ماقبله ، أى قوله : « فأردت أن أعيبها » .

وإما أن يكون شرطاً — كما سبق — وإما أن يكون جواب شرط ، وهو ضربان :

(١) المثل السائر ٢/٣٠٠ (٢) الخصائص ٢/٣٦٦

إهداء من شبكة الألوكة

أحدهما : أن يكون لمجرد الاختصار ؛ كقوله تعالى : « وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون » أعرضوا ؛ بدليل قوله بعده : « إلا كانوا عنها معرضين » .

والثانى : أن يحـــذف للدلالة على أنه شىء لا يحيط به الوصف ، أو لتذهب نفس السامع كل مذهب ممكن ؛ كقوله تعالى : « ولو ترى إذ وقفوا على النار » وقوله : « ولو ترى إذ وقفوا على ربهم » .

وأما ما يكون جملة : فهو إما مسبب ذكر سببه ، كقوله تعالى : « ليحق الحق ويبطل الباطل » ؛ أى فعل ما فعل .

وإما أن يكون سبباً ذكر مسببه : كقوله تعالى : « فتوبوا إلى بارئكم ، فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم » ؛ أى فامتثلتم ؛ فتاب عليكم .

وإما ألا يكون سبباً ولا مسبباً كقوله تعالى : « فنعم الماهدون » .

وأما ما يكون أكثر من جملة . فكقوله تعالى : « فقلنا اضربوه ببعضها ؛ كذلك يحى الله الموتى » ؛ أى فضربوه ببعضها ، فحى ؛ فقلنا كذلك يحى الله الموتى :

ثم رأى الخطيب أن الحذف على وجهين :

أحدهما : أن لا يقام شىء مقام المحذوف — كما سبق — .

والآخر : أن يقام مقامه ما يدل عليه ، كقوله تعالى : فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم أى : فإن تولوا فلا لوم على لأنى قد أبلغتكم(١)

وهكذا وجد موضوع الحذف ، الذى ذكره ابن جنى فى باب شجاعة العربية ؛ منوها به بين الأساليب العربية ؛ مكانه فى البلاغة العربية .

---

(١) الإيضاح ١١٠

فقد كانت أضربه التى بينها ابن جنى أساساً بنى عليه البلاغيون تقسيماتهم للإيجاز بالحذف ؛ كما أن أمثلته التى ذكرها ، جعلت معالم قاس عليها البلاغيون من بعده ، ما وجدوه من تراث العربية منظوماً كان أو منثوراً .

ولئن كان ابن جنى فى تلك الأضرب قد تتبع معانى النحو فيما بين الكلم دون ذكر للأغراض التى سيق لأجلها الكلام ؛ فلقد تتبع البلاغيون من بعده ، كعبد القاهر الجرجانى ، وابن الأثير ، والخطيب القزوينى ؛ تلك المعانى على حسب الأغراض التى سيق لها الكلام فكانت خير مثال للنظم فى رأى عبد القاهر الجرجانى ؛ وهو تتبع معانى النحو فيما بين الكلم على حسب الأغراض التى يساق لها الكلام .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الإطناب بالاعتراض

ذكر ابن جنى أن هـذا النوع من الكلام كثير ، وأنه قد جاء في القرآن الكريم ، وفصيح الشعر ومنثور الكلام ، وأنه جار عند العرب مجرى التأكيد ، ولهذا فإنه لا يعاب عليهم ، ولا يستنكر عندهم أن يعترض به بين الفعل وفاعله ، والمبتدأ وخبره ، وغير ذلك مما لا يجوز الفصل فيه بغيره إلا شاذا ، ومتأولا(١) .

فالاعتراض كثير عند العرب ، وفائدته التأكيد ، ومما جاء منه في القرآن الكريم : قول الله تعالى : « فلا أقسم بمواقع النجوم ، وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ؛ إنه لقرآن كريم » .

فهذا فيه اعتراضان : أحدهما قوله : « وإنه لقسم لو تعلمون عظيم » ، لأنه اعترض به بين القسم ، وهو : « فلا أقسم بمواقع النجوم » ، وبين جوابه وهو : « إنه لقرآن كريم » ، وفي نفس هـذا الاعتراض اعتراض آخر ، بين الموصوف الذي هو : (قسم) وبين صفته التي هي : (عظيم) ، وهو قوله « لو تعلمون » ، فهذان اعتراضان — كما ترى — ولو جاء الكلام غير معترض فيه لقال : فلا أقسم بمواقع النجوم ، إنه لقرآن كريم وإنه لقسم عظيم لو تعلمون .

أنواع الاعتراض : ذكر ابن جنى من أنواع الاعتراض ، ما يلي :

١ — الاعتراض بين الفعل وفاعله ، وذلك كقول امرىء القيس :

ألا هل أتاها — والحوادث جمة
بأن امرأ القيس بن تملك بيقرا

(١) الخصائص ١/٢٣٥ .

« وتملك » : أمه ، و « بيقر » : أي : ترك البادية ، ونزل العراق ، أو نزل الحضر ، أو : أعيا ، فقوله (والحوادث جمة) أعترض بين الفعل وفاعله .

ومنه ما أنشده أبو علي :

وقد أدركتني — والحوادث جمة
أسنة قوم ، لا ضعاف ولا عزل

ومنه قول قيس بن زهير العبسي (١) :

ألم يأتيك — والأنباء تنمى — بما لاقت لبون بني زياد ؟!

فقوله : (والأنباء تنمى) أعتراض بين الفعل وفاعله .

٢ — الاعتراض بين الفعل ومفعوله ، وهذا ما رواه ابن جنى لعبيد الله ابن الحر :

تعلم ، ولو كاتمته الناس أنني
عليك — ولم أظلم بذلك — عاتب

فقوله : (ولو كاتمته الناس) اعتراض بين الفعل ومفعوله ، وقوله : « ولم أظلم بذلك » اعتراض بين اسم إن وخبرها .

٣ — الاعتراض بين المفعول الأول والثاني ومن ذلك قول أبي النجم :

وبدلت — والدهر ذو تبدل —
هيفا دبورا ، بالصبا والشمال

(١) شواهد المغني للسيوطي ١١٣ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

فقوله (والدهر ذو تبدل) أعتراض بين المفعول الأول والثانى، ويقصد بالمفعول الأول هنا: نائب الفاعل.

ومن الأعتراض بين المفعول الأول والثانى قول الآخر:

أرانى، ولا كفران لله إنما أواخى من الأقوام كل بخيل

٤ — الأعتراض بين المبتدأ والخبر:

وذلك مثل قول الله — عز وجل —: «هذا، فليذوقوه حميم وغساق» فقوله تعالى: (فليذوقوه) اعتراض بين المبتدأ وخبره.

ومنه ماروواه ابن جنى لمعن بن أوس:

وفيهن — والأيام يعثرن بالفتى — نوادب لا يملنه ونوائح

ففصل بقوله: (والأيام يعثرن بالفتى) بين المبتدأ وخبره.

٥ — الأعتراض بين اسم إن وخبرها:

ومن ذلك قولهم، زيد — ولا أقول إلا حقا — كريم.

ومنه قول رؤبة:

إنى — وأسطار سطرن سطرا — لقائل: يانصر نصر نصرا

ومنه بيت كثير:

وإنى — وتهيامى بعزة — بعدما تخليت مما بيننا وتخلت

لكالمرتجى ظل الغمامة، كلما تبوأ منها للمقيل اضمحلت

فقد ذكر ابن جنى أنه سأل أبا على الفارسى عن بيت كثير (وإنى وتهيامى بعزة ..).

فأجاز أبو على أن يكون قوله: «وتهيامى بعزة» جملة من مبتدأ وخبر، اعترض بها بين اسم (إن) وخبرها، الذى هو:

لكالمرتجى ظل الغمامة كلما تبوأ منها للمقيل اضمحلت

وأنه سأله: أيجوز أن يكون (وتهيامى بعزة) قسما؟ فأجاز أبو على ذلك ولم يمنعه.

٦ — الاعتراض بين القسم وجوابه:

كما فى قوله تعالى: «فلا أقسم بمواقع النجوم — وأنه لقسم لو تعلمون — عظيم» إنه لقرآن كريم» حيث فصل بينهما بقوله: «إنه لقسم لو تعلمون عظيم».

٧ — الاعتراض بين الصفة والموصوف:

كما فى قوله تعالى: «وإنه لقسم — لو تعلمون — عظيم» حيث فصل بينهما بقوله: (لو تعلمون)

ويشترط ابن جنى فى الجملة — أو الجمل المعترضة: ألا يكون لها محل من الإعراب ولهذا فإنه يقول: فأما ما أنشده أبو على من قول الشاعر:

أتنسى — لا هداك الله — ليلى وعهد شبابها الحسن الجميل

كأن — وقد أتى حول جديد — أثافيها حمامات مثول

فإنه لا اعتراض فيه.

ومن الواضح أنه يقصد البيت الثانى لا الأول، ففى البيت الأول اعتراض بين الفاعل والمفعول، والجملة المعترضة فيه لا محل لها من الإعراب، وهى قوله (لا هداك الله).

ثم يقول: «وذلك أن الاعتراض: لا موضع له من الإعراب،

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ولا يعمل فيه شيء من الكلام المعترض به بين بعضه وبعض على ما تقدم .

فأما قوله : (وقد أتى حول جديد) فذو موضع من الإعراب ، وموضعه النصب مما في كأن من معنى التشبيه ، ألا ترى أن معناه : أشبهت وقد أتى حول جديد حمامات مثولا ، أو أشبهها ، وقد مضى حول جديد بحمامات مثول ، أي : أشبهها في هذا الوقت ، وعلى هذه الحال بكذا »(١) .

ويختم ابن جني حديثه عن الاعتراض بأنه : في شعر العرب ومنثورها كثير وحسن ، ودال على فصاحة المتكلم ، وقوة نفسه ، وامتداد نفسه ، وأنه رآه في أشعار المحدثين ، وأنه في شعر إبراهيم بن المهدي أكثر منه في شعر غيره من المولدين(٢) .

وفي قوله : « وقوة نفسه وامتداد نفسه » ما يشعرك بأنه يضع هذا النحو من الكلام في باب الإطناب .

ومما أسلفناه لك مما جاء من الاعتراض في خصائص ابن جني ، يمكن أن تضع تصوراً للاعتراض عند ابن جني من الناحية البلاغية ، وهو كما يلي :

١ — أن الاعتراض قد جاء كثيراً عن العرب في شعرهم ، ونثرهم ، كما أنه قد ورد في القرآن الكريم .

٢ — أنه أسلوب حسن ، يدل على فصاحة المتكلم ، وقوة نفسه ، وامتداد نفسه .

٣ — أنه يجري عند العرب مجرى التأكيد .

٤ — أن الجملة أو الجمل المعترضة يشترط فيها أن لا يكون لها محل من الإعراب .

٥ — أنه يأتي بين الفعل والفاعل ، وبين الفعل والمفعول ، وبين

(١) الخصائص ٣٤٧/١ (٢) الخصائص ٣٤١/١

المفعول الأول والثاني وبين المبتدأ والخبر ، وبين اسم إن وخبرها ، وبين القسم وجوابه ، وبين الصفة والموصوف .

٦ — أن ابن جني يعده من باب الإطناب ، بدليل قوله : ودال على فصاحة المتكلم ، وقوة نفسه ، وامتداد نفسه .

إفادة البلاغيين من هذا الباب :

يعد أبو هلال العسكري معاصر ابن جني ، الاعتراض نوعاً من أنواع البديع ، ويعرفه بأنه اعتراض كلام في كلام لم يتم ، ثم يرجع إليه ليتمه(١) وتابعه أسامه ابن منقذ ، فجعله باباً من أبواب البديع(٢) .

ولكن ابن الأثير يعده النوع الثامن عشر من المقالة الثانية في الصناعة المعنوية(٣) ، ويجيء به بعد الإطناب والتكرير ، مما يدلك على أنه ينحو به نحو الإطناب ، والإطناب من علم المعاني ولكنه جعله شاملا للمفرد ، والجملة وقسمه إلى قسمين :

القسم الأول : لا يأتي في الكلام إلا لفائدة ، وهو جار مجرى التوكيد

والآخر هو : ما يأتي في الكلام لغير فائدة .

والقسم الأول هو ما أورده ابن جني في كتابه ، وأنت تشعر بأن ابن الأثير يقصد هذا الأمرين :

أولهما : أن عبارة : وهو جار مجرى التوكيد ، مأخوذة من قول ابن جني : وهو جار عند العرب مجرى التوكيد

(١) الصناعتين ٤٤١ (٢) البديع لأسامه بن منقذ ١٣٠
(٣) المثل السائر ٢٤٤

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

والآخر : أنه يمثل له بما مثل له ابن جنى ، وهو قول الله تعالى « فلا أقسم بمواقع النجوم ، وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ، إنه لقرآن كريم فى كتاب مكنون » ثم يقول : فى هذا الكلام اعتراضان : أحدهما : هو قوله : وإنه لقسم لو تعلمون عظيم وذلك اعتراض بين القسم الذى هو : فلا أقسم بمواقع النجوم ، وجوابه الذى هو : إنه لقرآن كريم ، وفى نفس هذا الاعتراض اعتراض آخر بين الموصوف الذى هو (قسم) وبين صفته التى هى ، (عظيم) وهو قوله : لو تعلمون ، فذلك اعتراضان كما ترى(١) .

وقد عرف الخطيب الاعتراض بقوله هو أن يؤتى فى أثناء كلام ، أو بين كلامين متصلين معنى بجملة أو أكثر ، لا محل لها من الإعراب ، لنكتة سوى دفع الإيهام ، كالتنزيه والتعظيم ، وكالدعاء ، وكالتنبيه ، ثم مثل بالآيات الكريمة السابقة لما جاء فى الاعتراض بأكثر من جملة(٢) .

(١) المثل السائر ٢٤٥ (٢) الإيضاح ١١٧

التشبيـــه

جاء حديث التشبيه عند ابن جنى فى الخصائص — من خلال حديثه عن أصول اللغـــة ، ونحوها ، ويمكن أن نستشف ، نظرته للتشبيه من خلال الأبواب التالية :

١ — باب فى إصلاح اللفظ ، ويمكن أن نتبين منه : سرقوة التشبيه بأداته : (كأن) .

٢ — باب فى الاستخلاص من الأعلام معانى الأوصاف ، وفيه ذكر لبعض ما أسماه المتأخرون تشبيها بليغاً .

٣ — باب من غلبه الفروع على الأصول ، وفيه ذكر لأمرين :

أولهما : التشبيه المقلوب .

والآخر : أن العرب إذا شبهت شيئاً بشىء مكنت للشبه بينهما بإعطاء المشبه به شيئاً من المشبه .

٤ — باب فى التجريد :

وقـــد تضمنت تلك الأبواب — كما أسلفنا — بيان السر فى قوة التشبيه بأداته (كأن) كما تضمنت ثلاث صور من صور التشبيه ، هى : التشبيه البليغ ، والتشبيـــه المقلوب ، والتجريد القائم على التشبيه ، وهو صورة من صور التشبيه على حد المبالغة عند عبد القاهر الجرجانى ، ولنستعرضها معاً ، فى شىء من التفصيل :

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

١ — السر فى قوة التشبيه بأداته : (كأن) :

يعرض ابن جنى لهذا الموضوع بفلسفة فى النظم لا نجدها عند غيره ممن سبقه من البلاغيين بل لعلها كانت نور هداية لمن أتى بعدهم ؛ فى معرفة الكثير عن أسرار النظم ؛ واستنطاق ما انبهم من خفايا التراكيب .

فهو يبدأ ببيان السر فى أن العرب قد عنيت بألفاظها ؛ فأولتها صدراً صالحاً من تثقيفها . واصلاحها ؛ وهو : أن الألفاظ أزمة للمعانى ، وأدلة عليها ، وموصلة إليها ، ومحصلة للمراد منها .

وفى خلال أمثلته التى يوردها دليلا على عنايتهم بإصلاح اللفظ ؛ يذكر أن من إصلاحهم للفظ قولهم : (كأن زيداً عمرو) ؛ ويذكر أن أصل هذا الكلام : (زيد كعمرو) ؛ ثم إنهم بالغوا فى توكيد التشبيه ؛ فقدموا حرفه إلى أول الكلام ؛ عناية به ، وإعلاماً أن عقد الكلام عليه ، فلما تقدمت الكاف ، وهى جارة ، لم يجز إن تباشر (إن) ؛ لأنها ينقطع عنها ماقبلها من العوامل ؛ فوجب لذلك فتحها ، فقالوا : كأن زيدا عمرو(١) .

إفادة عبد القاهر من تلك المسألة :

ولقد أفاد عبد القاهر الجرجانى من تلك المسألة البلاغية التى مثل بها ابن جنى ، وجعلها دليلا على عناية العرب بإصلاح اللفظ ، إفادة كبيرة ؛ فلقد أطلق على ما أسماه ابن جنى : إصلاح اللفظ . عبارة التوخى فى نظم اللفظ ، وترتيبه ، وبنى على هدى مما قاله ابن جنى ؛ فى (زيد كعمرو) و (كأن زيداً عمرو) ـ أنه لا يكون لإحدى العبارتين مزية على الأخرى ،

(١) الخصائص ١/٣١٧

حتى يكون لها فى المعنى تأثير لا يكون لصاحبتها ؛ نحو أن تقصد تشبيه الرجل بالأسد ؛ فتقول : (زيد كالأسد) ؛ ثم تريد هذا المعنى بعينه ، فتقول : (كأن زيداً الأسد) ، فتفيد تشبيهه ـ أيضا ـ بالأسد ، إلا أنك تزيد فى معنى تشبيهه به زيادة ، لم تكن فى الأول ، وهى أن تجعله ؛ من فرط شجاعته ، وقوة قلبه ، وأنه لا يروعه شىء ، بحيث لا يتميز عن الأسد ، ولا يقصر عنه حتى يتوهم أنه أسد فى صورة آدمى !

ثم يستنتج عبد القاهر من هذا الفرق ، الذى أتى به ابن جنى أيضاً ، من قولهم : (زيد كعمرو) و (كأن زيداً عمرو) ، أنه ليس إلا بما توخى فى نظم اللفظ وترتيبه — وهو ماسماه ابن جنى إصلاح اللفظ — حيث قدمت الكاف إلى صدر الكلام وركبت مع إن .

ثم يطلب منا بعد استنتاجه هذا ، أن نجعله العبرة فى الكلام كله ، وأن نروض أنفسنا عليه قائلا : وإذا لم يكن إلى الشك سبيل ، أن ذلك كان بالنظم فاجعله العبرة فى الكلام كله ، وروض نفسك على تفهم ذلك ، وتتبعه ، واجعل فيها : أنك تزاول منه أمراً ، عظيما ، لا يقادر قدره ، وتدخل فى بحر عميق لا يدرك قعره(١) .

ثم يأتى عبد القاهر بتلك المسألة — أيضاً — فى موضع آخر ، شاهداً على أنه إذا تغير النظم تغير المعنى ، فيقول : فأما إذا تغير النظم ، فلابد — حينئذ — من أن يتغير المعنى — على ماقضى من البيان فى مسائل التقديم والتأخير ، وعلى ما رأيت فى المسألة التى مضت الآن ، أعنى قولك : (إن زيداً كالأسد ، وكأن زيداً الأسد) لأنه لم يتغير من اللفظ شىء ، وإنما تغير

(١) دلائل الإعجاز ١٦٨ ، ١٦٩

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

النظم فقط ، وأما فتحك (أن) عند تقديم الكاف ، وكانت مكسورة ، فلا اعتداد بها ، لأن معنى الكسر باق بحاله(١) .

ثم يطلق على الفروق التى تجـــدها بين نظم ونظم ، اسم المزايا ، أو الخصائص ، فيذكر أن السبب فى أن أحالوا ، فى أشباه هذه المحاسن التى ذكرها ، على اللفظ ، أنها ليست بأنفس المعانى : بل هى زيادات فيها وخصائص ، ألا ترى ، أن ليست المزية التى تجدها لقولك : (كأن زيداً الأسد) على قولك (زيد كالأسد) شيئاً خارجاً عن التشبيه الذى هو أصل المعنى ، وإنما هو زيادة فيه ، وفى حكم الخصوصية فى الشكل ، نحو أن يصاغ خاتم على وجه ، وآخر على وجه آخر ، تجمعهما صورة الخاتم ، ويفترقان بخاصية ، وشىء ، يعلم أنه لا يعمل منفرداً ، ولما كان الأمر كذلك لم يمكنهم أن يطلقوا ، اسم المعانى على هذه الخصائص ، إذ لا يفترق الحال — حينئذ — بين أصل المعنى ، وبين ما هو زيادة فى المعنى ، وكيفية له ، وخصوصية فيه ، فلما امتنع ذلك توصلوا إلى الدلالة عليها بأن وصفوا اللفظ فى ذلك بأوصاف يعلم أنها لا تكون أوصافاً له من حيث هو لفظ »(٢) .

٢ — التشبيه البليغ :

فى استطاعتنا ، أن نتبين هذه الصورة ، من صور التشبيه — وهى الصورة التى أطلق عليها عبد القاهر : التشبيه على حد المبالغة ، وأطلق عليها المتأخرون : مصطلح التشبيه البليغ — من خلال حديث ابن جنى عن

(١) دلائل الإعجاز

(٢) دلائل الإعجاز ١٧٣

« استخلاص معانى الأوصاف من الأعلام » ، فقد قال فيه : ومن ذلك : ما أنشدناه ، أبو على — رحمه الله — من قول الشاعر :

أنا أبو المنهال بعض الأحيان
ليس على حسبى بضـــؤلان

أنشدنيه — رحمه الله — ونحن فى دار الملك ، وسألنى عما يتعلق به الظرف الذى هو : (بعض الأحيان) فخضنا فيه ، إلى أن برد فى اليد ، من جهته أنه يحتمل أمرين :

أحدهما : أن يكون أراد : أنا مثل أبى المنهال ، فيعمل فى الظرف — على هذا — معنى التشبيه أى : أشبه أبا المنهال فى بعض الأحيان .

والآخر : أن يكون قد عرف من أبى المنهال ، هذا الغناء ، والنجدة ، فإذا ذكر فكأنه ذكرا ، فيصير معناه إلى أنه ، كأنه قال : أنا المغنى ، فى بعض الأحوال ، أو : أنا النجد فى بعض تلك الأوقات ، ألا ترى ، كيف انتزعت من العلم الذى هو (أبو المنهال) معنى الصفة والفعلية ؟

ثم قال : وقد مر بهذا الوضع : الطائى الكبير ، فأحسن فيه ، واستوفى معناه ، فقال :

فلا تحسبا هنداً ، لها الغدر وحدها
سجية نفس ، كل غانيـــة هند !

فقوله : (كل غانية هند) متناه فى معناه ، وآخذ لأقصى مداه ، ألا ترى أنه كأنه قال : كل غانية غادرة ، أو قاطعة ، أو خائنة ، أو نحو ذلك ؟! .

ومنه قول الآخر :

إن الذئاب قد اخضرت براثنها
والناس كلهم بكر إذا شبعوا

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

أى : إذا شبعوا ، تعادوا ، وتغادروا ، لأن بكراً هكذا فعلها .

ثم قال ابن جنى : ونحو من هذا — وإن لم يكن الاسم المقول عليه علما — قول الآخر :

ما أمك اجتاحت المنايا كل فؤاد عليك أم !

كأنه قال : كل فؤاد عليك حزين أو كئيب ، إذ كانت الأم هكذا غالب أمرها لاسيما مع المصيبة وعند نزول الشدة .

ومن العلماء أيضاً — قوله :

أنا أبو بردة إذ جد الوهل

أى : أنا المغنى ، والمجدى عند اشتداد الأمر »(١) .

وهكذا نرى أن ابن جنى كان يسأل أبا على الفارسى فى مسألة نحوية بحتة ، تمثلت فى البحث عن متعلق للظرف فى قوله : (أنا أبو المنهال بعض الأحيان) . وأن أبا على الفارسى قد فكر مع ابن جنى فى هذه المسألة إلى أن وجد أبو على أنه يحتمل تفسيرين :

أولهما : أن يكون قصده : أنا مثل أبى المنهال ، أى أشبه أبا المنهال فى بعض الأحيان .

والآخر : أن يكون قصده : أنا المغنى فى بعض الأحوال ، وأنا النجد فى بعض تلك الأوقات ، لأنه قد عرف عن أبى المنهال ذلك الغناء ، وتلك النجدة .

(١) الخصائص ٣/٢٧٠

وسواء كان المعنى : أنا أشبه أبا المنهال فى بعض الأحيان ، أو كان المعنى : أنا المغنى فى بعض الأحوال . فإن الأمر لا يعدو أن يكون تشبيها على حد المبالغة كما يقول عبد القاهر ، أو تشبيها بليغاً على حد تعبير المتأخرين .

فقوله : (كل غانية هند) يقول ابن جنى فى معناها : « كل غانية غادرة ، أو قاطعة ، أو خائنة ، أو نحو ذلك » ، وهذا مساو لقولنا : كل غانية مثل هند فى غدرها ، أو قطيعتها ، أو خيانتها ، وإلا لما أخبر عن كل غانية بأنها هند .

وهكذا يقال فى : (والناس كلهم بكر إذا شبعوا) ، وقوله : (كل فؤاد عليك أم) وقوله : (أنا أبو بردة) .

فقول ابن جنى فى « والناس كلهم بكر إذا شبعوا » : أى : إذا شبعوا تعادوا وتغادروا ، لأن بكرا هذا فعلها ، مساو لقولنا : والناس كلهم إذا شبعوا مثل بكر فى تعاديها ، وتغادرها ، وقوله فى : « كل فؤاد عليك أم » أى : كل فؤاد عليك حزين ، أو كئيب ، مساو لقولنا : كل فؤاد حزين عليك كالأم عند المصيبة ، أو نزول الشدة ، وقوله فى « أنا أبو بردة إذ جد الوهل » أى : أنا المغنى والمجدى عند اشتداد الأمر ، مساو لقولنا : أنا مثل أبى بردة فى غنائه عند اشتداد الأمر .

ويزيد الإمام عبد القاهر هذه النقطة وضوحاً ، بأن الاسم إذا كان مجتلباً لإثبات معناه ، أو نفيه ، بأن كان خبراً عن مبتدأ ، أو منزلا منزلة الخبر ، بأن كان خبراً لكان ، أو مفعولا ثانيا لباب علمت ، ويكون — أيضاً — حالا ، فإنه فى هذه الحال يكون إما لإثبات وصف هو مشتق منه لذلك المبتدأ ، كالانطلاق فى قولك (زيد منطلق) أو لإثبات جنسية هو موضوع لها ، كقولك : هذا رجل ، فإذا امتنع فى قولنا : (زيد أسد)

إهداء من شبكة الألوكة

أن تثبت الجنسية لزيد على الحقيقة كان لإثبات شبه من الجنس له وإذا كان كذلك كان جديراً بتسميته تشبيها(١) .

وقد أفاد الخطيب القزوينى من انتزاع معنى الصفة من العلم فى أن الاستعارة لا تكون فى الأعلام إلا إذا تضمن العلم نوع وصفية لسبب خارج ، كتضمن اسم : حاتم الجواد ، ومادر البخيل ، وما جرى مجراهما(٢) .

ولا شك أن جهد ابن جنى فى هذا الباب كان مبكراً ، إذ بين أن العلم إذا اشتهر بصفة أمكن انتزاع معنى الصفة والفعلية منه ، كالذى رأيته من (أبى المنهال) ، ومن هنا : لم يجز الخطيب استعارة العلم إلا إذا تضمن نوعاً من الوصفية ، كما تضمن « حاتم » معنى الجواد ، وكما تضمن « مادر » معنى البخيل ، وكان مهتديا فى هذا بما قاله ابن جنى فى هذا الباب .

٢ — التشبيه المقلوب :

وحديث ابن جنى عن التشبيه المقلوب، نستطيع تبيانه من خلال حديثه فى باب عقده فى « الخصائص » لما أسماه : « غلبة الفروع على الأصول » .

وقد بين ابن جنى فى بداية حديثه عن هذا الباب أنه فصل طريف من فصول العربية ، تجده فى معانى العرب ، كما تجده فى معانى الإعراب ، وأن الغرض منه إنما هو المبالغة .

وقد قصد بمعانى العرب ، ماضمنته العرب شعرها ، ونثرها من المعانى ،

(١) أسرار البلاغة ٢٦٢

(٢) الإيضاح ١٦٤ ، ومختصر السعد ٦٩/٤

والأغراض التى تقصدها ، أما معانى الإعراب ، فإنه قد قصد بها ما يهم النحويين من المعانى الخاصة بإعراب الكلام .

أما القسم الأول — وهو الخاص بمعانى العرب — فهو مبحث بلاغى بحت ، وهذا نقله ابن الأثير فى المثل السائر ، وسماه : الطرد والعكس(١) ، ولم يزد على ماقاله ابن جنى شيئاً !

وأما القسم الثانى — وهو الخاص بمعانى الإعراب ، فإنه مبحث نحوى بحت ، وليس موضوع بحثنا .

وقد ذكر ابن جنى — كما رأيت — أن غلبة الفروع على الأصول — لا يأتى إلا والغرض منه المبالغة .

ثم ذكر أن مما جاء فيه للعرب قول ذى الرمة :

ورمل كأوراك العذارى قطعته
إذا ألبسته المظلمات الحنادس

ثم قال : أفلا ترى ذا الرمة ، كيف جعل الأصل فرعاً ، والفرع أصلاً ؟ وذلك أن العادة والعرف فى نحو هذا : أن تشبه أعجاز النساء بكثبان الأنقاء ، ألا ترى إلى قوله :

ليلى قضيب تحته كثيب
وفى القلاد رشأ ربيب

وإلى قول ذى الرمة — أيضاً — وهو من أبيات الكتاب — :

ترى خلفها نصفاً ، قناة قويمة
ونصفاً نقاً ، يرتج ، أو يتمرمر

(١) المثل السائر ١٥٩/٢

إهداء من شبكة الألوكة www.al...

وإلى قول الآخر :

خلقت غـــير خلقة النسوان
إن قمت فالأعلى قضيب بان
وإن توليت فـــد عصتان
وكل إد تفصـــل العينان

وإلى قوله :

كد عص النقا يمشى الوليدان فوقه
بما احتسبا من لين مس وتسهال

ثم قال ابن جنى : وما أحسن ما ساق الصنعة فيه الطائى الكبير :

كم أحرزت قضب الهندى مصلتة
تهتز من قضب ، تهتز فى كتب

ولله البحترى ، فما أعذب ، وأظرف ، وأدمث قوله :

أين الغزال المستعير من النقا
كفلا ، ومن نور الأقاحى مبسما

فقلب ذو الرمة العادة ، والعرف فى هذا ، فشبه كثبان الأنقاء ، بأعجاز النساء وهذا كأنه يخرج مخرج المبالغة ، أى قد ثبت هذا الموضع ، وهذا المعنى لأعجاز النساء وصار كأنه الأصل فيـــه ، حتى شبه به كثبان الأنقاء .

ومثله للطائى الصغير :

فى طلعة البدر شىء من محاسنها
وللقضيب نصيب من تثنيهـــا

وآخر من جاء به شاعرنا (ويقصد به المتنبى) ؛ فقال :

نحن ركب ملجن فى زى ناس
فوق طير لهـــا شخوص الجمال

فجعل كونهم جنا أصلا ، وجعل كونهم ناسا فرعاً ، وجعل كون مطاياهم طيراً ، أصلا ، وكونها جمالا فرعاً ، فشبه الحقيقة بالمجاز فى المعنى الذى أفاد المجاز من الحقيقة ما أفاد .

وهذا المعنى هو الذى قصده ابن جنى فى بداية هذا الباب من أن العرب إذا شبهت مكنت الشبه بين المشبه ، والمشبه به ، بإعطاء المشبه به شـــيئاً من المشبه ثم قال ابن جنى : وعلى نحو من هذا قالوا للناقة : (جمالية) لأنهم شبهوها بالجمل فى شدته ، وعلو خلقه ، قال الأعشى :

جمالية تغتلى بالرداف إذا كذب الآثمات الهجيرا

وقال الراعى :

على جمالية ، كالفحل هملاج

وهو كثير ، فلما شاع ذلك واطرد ، صار كأنه أصل فى بابه ، حتى عادوا ، فشبهوا الجمل بالناقة فى ذلك ، فقال :

وقربوا ، كل جمالى عضه قريبة غدوته من محمضه

فهذا من حملهم الأصل على الفرع ، فيما كان الفرع أفاده من الأصل »(١) .

---

(١) الخصائص ١/٣٠٠ — ٣٠٣

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فأبو الفتح ابن جنى يذكر أن من عادة العرب أن تشبه أعجاز النساء بكثبان الأنقاء فقد شبه الشاعر ليلى بالقضيب ، وعجيزتها بالكثيب ، فى قوله : (ليلى قضيب تحته كثيب) ، وشبه ذو الرمة المرأة بالقضيب وعجيزتها بالنقا فى قوله : (ترى خلفها نصفا قناة قويمة ونصفاً نقاً)وشبه الآخر المرأة بقضيب البان وعجيزتها بالدعصتين — قطعتين من الرمل — فى قوله : (إن قمت فالأعلى قضيب بأن وإن توليت قد عصتان) وشبه امرؤ القيس عجيزة المرأة بدعص النقا وأحسن الصنعة أبو تمام ، فاستعار القضب لقدود النساء واستعار الكثب لأعجازهن !

وزاد قول البحترى عذوبة ، وظرفاً ، ودماثة ، إذا استعار الغزال للمرأة ثم جعل الغزال يستعير هو الآخر من النقا كفلا ، ويستعير من نور الأقاحى مبسماً !

ولكن ذا الرمة قلب تلك العادة ، وذلك العرف وعكس التشبيه ، فشبه كثبان الأنقاء بأعجاز النساء ، وذلك من باب المبالغة ، فكأن هذا المعنى قد ثبت لأعجاز النساء ، فصار أصلا تشبه به كثبان الأنقاء.

وقد تطور هذا الأمر الذى ابتدعه ذو الرمة — وهو عكس التشبيه ، بجعل المشبه مشبها به وجعل المشبه به مشبهاً — حتى رأينا البحترى يزيد على هذا العكس ، فلم يكتف بجعل الفرع أصلا ، والأصل فرعاً فى التشبيه ، بل جعل الأصل لا يشبه الفرع إلا فى شئ قليل منه ! !

فى طلعة البدرشى من ملاحة محبوبته ، وللقضيب شئ قليل من تثنيها ! !

وقد أربى على الجميع أبو الطيب المتنبى ، فجعل كونهم جنا ، أصلا ، وكونهم ناسا فرعاً ، وأن ذلك أمر مفروغ منه مسلم به ، ثم جعل كون مطاياه طيراً أصلا ، وكونها جمالا فرعاً ، وأن ذلك — أيضاً — أمر

مفروغ منه مسلم به ، لأنه شبه الحقيقة — وهى الناس ، والجمال — بالمجاز — وهو : الجن والطير .

وقد أفاد عبد القاهر الجرجانى من هذا الباب — وهو جعل الفرع أصلا ، والأصل فرعاً — إفادة كبيرة ، فقد أطال فى شرح هذا المعنى الذى جعله فرقاً بين التشبيه ، والتمثيل ، فذكر أن جعل الفرع أصلا ، والأصل فرعاً ، إذا استقربت التشبيهات الصريحة ، وجدته يكثر فيها(١) ، وليس كذلك التشبيهات التى تأتى على طريق التأول : فهم فى التشبيهات الصريحة يشبهون الشيء بالشيء فى حال ، ثم يعطفون على الثانى فيشبهونه بالأول ، فترى الشيء مشبها مرة ، ومشبهاً به مرة أخرى ، كتشبيه السيوف بالبروق ، والبروق بالسيوف ، وتشبيه الدروع بالغدران وعكسه ، وتشبيه أنوار الرياض بالنجوم وعكسه ، وتشبيه غرة الفرس الأدهم بالنجم والصبح وعكسه ، وتشبيه الجوارى بالسرو ، وعكسه ، وتشبيه ثدى الكواعب بالرمان وعكسه وتشبيه الجداول والأنهار بالسيوف ، وعكسه ، وتشبيه الأسنة بالنجوم وعكسه ، وتشبيه الدموع بالطل وعكسه ، وتشبيه الشيخ بالفرخ وعكسه وتشبيه الظليم فى حركة جناحيه بالخباء المقوض وعكسه .

ثم بين عبد القاهر ما يمتنع عكس التشبيه فيه ، وما يشبه الممتنع ، وما يستقيم العكس فيه .

ثم ذكر جعل الفرع أصلا فى الصفة للمبالغة ، كما فى قول محمد بن وهيب :

وبدا الصباح كأن غرته
وجه الخليفة حين يمتدح

---

(١) أسرار البلاغة ١٨٧

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ثم ذكر جعل الفرع أصلا، والأصل فرعاً فى التمثيل ، ويكون فى تشبيه المحسوس بالمعقول .

ثم يطلب منا عبدالقاهر — بعد أن عرفنا الطريقة فى جعل الفرع أصلا فى التمثيل — أن نرجع لنقابل بينه وبين التشبيه الظاهر ، لنعلم أن حاله — فى الحقيقة — مخالفة للحال ثم(١) .

ولا يتركنا الإمام عبد القاهر قبل أن يعطينا — للفرق — مثلا من طريق المشاهدة وهو : أنك بالتمثيل فى حكم من يرى صورة واحدة ، إلا أنه يراها تارة فى المرآة، وتارة على ظاهر الأمر ، وأما التشبيه الصريح، فإنك ترى صورتين على الحقيقة(٢) !

أما ضياء الدين بن الأثير ، فقد نقل ما قاله ابن جنى تقريباً ، وسماه « الطرد والعكس » وعرفه بأن يجعل المشبه به مشبهاً ، والمشبه مشبهاً به ، ثم قال : وبعضهم يسميه : « غلبة الفروع على الأصول »(٣) .

ثم عاد فقال: وهذا قد ذكره أبو الفتح بن جنى فى كتاب «الخصائص» وأورده هكذا مهملا ، ولما نظرت أنا فى ذلك ، وأنعمت نظرى فيه تبين لى ما أذكره ، وهو : أنه قد تقرر فى أصل الفائدة المستنتجة من التشبيه: أن يشبه الشىء بما يطلق عليه لفظة «أفعل» ، أى يشبه بما هو أبين، وأوضح ، وبما هو أحسن منه ، أو أقبح ، وكذلك يشبه الأقل بالأكثر ، والأدنى بالأعلى ، وهذا الموضع لاينقض هذه القاعدة ، لأن الذى قدمنا ذكره مطرد فى بابه ، وعليه مدار الاستعمال ، وهذا غير مطرد ، وإنما

(١) أسرار البلاغة ٢١٦
(٢) أسرار البلاغة ٢١٨
(٣) المثل السائر ١٥٦/٢

يحسن فى عكس المعنى المتعارف . وذلك أن تجعل المشبه به مشبها . والمشبه مشبها به ، ولا يحسن فى غير ذلك مما ليس بمتعارف(١) .

وأبو الفتح ابن جنى ، كما رأيت ، صاحب الفضل فى تنبيه البلاغيين إلى ما أسموه بالتشبيه المقلوب(٢) الذى يؤتى به للمبالغة، فى كمال المشبه فى وجه الشبه ، وعلى الرغم من هذا ، فإن ضياء الدين بن الأثير لم يشأ أن يعترف له بذلك الفضل، مع أن ماذكره ابن الأثير فى هذا الباب لم يتعد ماقاله ابن جنى!

على أن العلامة بهاء الدين السبكى يصرح بأن التشبيه المقلوب قد سماه ابن الأثير فى كتاب البلاغة : غلبة الفروع على الأصول(٣) ، وهى نفس تسمية ابن جنى فى الخصائص ! وقد رأى الخطيب القزوينى أن التشبيه المقلوب يعود الغرض من التشبيه فيه على المشبه به ، وهو ضربان :

أحدهما : إيهام أنه أتم من المشبه فى وجه الشبه ، كما فى قول محمد بن وهيب .

وبدا الصباح كأن غرته وجه الخليفة حين يمتدح

والثانى : بيان الاهتمام بالمشبه به ، كتشبيه الجائع وجهاً كالبدر فى الإشراق والاستدارة بالرغيف ، ويسمى هذا : إظهار المطلوب .

وقد أورد الخطيب ماروى عن الصاحب ، من أن قاضى سجستان دخل عليه ، فوجده الصاحب متفننا ، فأخذ يمدحه حتى قال :

وعالم يعرف بالسجزى

(١) المثل السائر ١٥٨/٢
(٢) الإيضاح ١٣٦
(٣) عروس الأفراح (شروح التلخيص) ٤٠٧/٣

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وأشار إلى الندماء، أن ينظموا، على أسلوبه، ففعلوا واحداً بعد واحد إلى أن انتهت النوبة إلى شريف في البين، فقال:

أشهى إلى النفس من الخبز

فأمر الصاحب: أن تقدم له مائدة(١).

ويفهم من هذه القصة أن الشاعر لم يشبه العالم بالخبز، إلا لأنه يريد خبزاً، فأظهر مطلوبه بذلك التشبيه المقلوب، ولهذا سمى الخطيب هذا الغرض: إظهار المطلوب.

٣ — التجريد:

لعل أول من عقد للتجريد باباً: هو أبو الفتح ابن جني، في «الخصائص(٢)»، فقد ذكر فيه أنه فصل من فصول العربية طريف، وأن أبا علي الفارسي — رحمه الله — كان مولعاً به، ولكنه لم يفرد له باباً. وأنه استطاع أن يستشف معناه من خلال ألفاظ أبي علي، وأن معناه — عند أبي علي — هو: «أن العرب قد تعتقد في الشيء من نفسه معنى آخر، كأنه حقيقته ومحصوله، وقد يجري ذلك إلى ألفاظها لما اعتقدت عليه معانيها، وذلك نحو قولهم: لئن لقيت زيداً، لتلقين منه الأسد. ولئن سألته لتسألن منه البحر، فظاهر هذا: أن فيه من نفسه أسداً وبحراً، وهو عينه الأسد، والبحر، لا أن هناك شيئاً منفصلاً عنه، ومتازاً منه.

وعلى هذا جاءت مخاطبة الإنسان نفسه حتى كأنها تقاوله أو تخاطبه:

(١) الإيضاح (ضمن شروح التلخيص) ٣/٤١١

(٢) الخصائص ٢ / ٤٧٣

ومن هذا قول الأعشى:

ودع هريرة، إن الركب مرتحل
وهل تطيق وداعاً أيها الرجل؟

وهو الرجل نفسه لا غيره».

ومنه قراءة من قرأ: «قال اعلم أن الله على كل شيء قدير»(١) بصيغة الأمر، أي: اعلم أيها الإنسان وهو نفسه الإنسان.

ومنه قول الله تعالى: «لهم فيها دار الخلد»(١)، وهي نفسها: دار الخلد.

وقد استعملت الفاء هنا للتجريد، وقد تستعمل الباء. كما تقول: لقيت به الأسد، وجاورت به البحر، أي: لقيت بلقائه الأسد، وجاورت بمجاورتي له البحر.

ثم مثل بمسئلة الكتاب: أما أبوك فلك أب، أي لك منه أو به، أو بمكانه أب. ثم قال: وأنشدنا — ويبدو أن الذي أنشده هو أبو علي الفارسي —:

أقامت بني مروان ظلماً دماءنا
وفي الله إن لم يعدلوا حكم عدل

(١) سورة البقرة ٢٥٩ وهي قراءة حمزة والكسائي ويعقوب وخلف كما في الاتحاف (الخصائص ٢ / ٤٧٤)

(٢) فصلت ٢٨

إهداء من شبكة الألوكة

وعلق عليه بقوله : « وهذا غاية البيان والكشف، ألا ترى أنه لا يجوز أن يعتقد أن الله — سبحانه — ظرف لشيء ، ولا متضمن له ، فهو إذاً: على حذف مضاف أي : في عدل الله حكم عدل .

ثم قال وأنشدنا (ويقصد أبا علي) :

بنزوة لص بعدما مر مصعب
بأشعث ، لا يفلي ولا هو يقمل .

ومصعب نفسه هو الأشعث :

ثم ذكر ابن جني أمثلة لما فيه مخاطبة الإنسان نفسه . ومنها قول الشاعر :

يا نفس صبراً ، كل حي لاق
وكل اثنين إلى افتراق

وقول النابغة الذبياني :

قالت له النفس : إني لا أرى طمعاً
وإن مولاك لم يسلم ، ولم يصد .

وقول الآخر :

أقول للنفس تأساء وتعزيه
إحدى يدي أصابتني ولم ترد

ويؤخذ من حديث ابن جني عن التجريد : ما يلي :

١ — أنه أول من عقد للتجريد باباً .

٢ — أنه قد أخذه سماعاً ، مشافهة من أبي علي الفارسي ، بدليل قوله :

(أنشدنا) كذا ، وأنشدنا كذا عقب ذكره لما فهمه عن أبي علي من التجريد .

٣ — أن فهم أبي علي الفارسي للتجريد قد لخصه ابن جني بعبارته هو، بقوله : « ومعناه : أن العرب قد تعتقد أن في الشيء من نفسه معنى آخر ، كأنه حقيقته وحصوله ، وقد يجري ذلك إلى ألفاظها ، لما عقدت عليه معانيها ، وذلك نحو قولهم : لئن لقيت زيدا ، لتلقين منه الأسد ، ولئن سألته لتسألن منه البحر ، فظاهر هذا أن فيه من نفسه أسداً وبحراً ، وهو عينه الأسد والبحر ، لا أن هناك شيئا منفصلا عنه ، ومتمازا منه .

وعلى هذا يخاطب الإنسان منهم نفسه ، حتى كأنها تقابله ، أو تخاطبه،

ومنه قول الأعشى :

وهل تطيق وداعاً أيها الرجل؟

وهو الرجل نفسه لا غيره .

٤ — ومن الأمثلة التي ساقها ابن جني للتجريد، يمكن أن نقسم التجريد — في رأيه — إلى قسمين :

القسم الأول : ما تضمن مخاطبة الإنسان لنفسه ، كما في قول الأعشى: (وهل تطيق وداعاً أيها الرجل ؟) وقول الآخر : (أقول للنفس تأساء وتعزية) ، وقول غيره : (يا نفس صبرا .)

والقسم الثاني : ما لم يتضمن مخاطبة الإنسان لنفسه ، كما في قولهم : (لئن لقيت زيداً لتلقين منه الأسد)، (ولئن سألته لتسألن منه البحر)، وكقوله تعالى : « لهم فيها دار الخلد » .

٥ — يؤخذ من أمثلة القسم الثاني : أن منه ما يكون قائماً على التشبيه

إهداء من شبكة الألوكة

كالذى فى قولهم :(لئن لقيت زيداً ليلقين منه الأسد) ومالا يكون قائماً على التشبيه ، كما فى الآية الكريمة « لهم فيها دار الخلد » .

وحديثنا هنا عن التجريد القائم على التشبيه :

والإمام عبد القاهر الجرجانى يعد التجريد القائم على التشبيه فى عداد التشبيه على حد المبالغة — على حد تعبيره — أو فى عداد التشبيه البليغ — على حد تعبير المتأخرين من البلاغيين — وذلك حيث يفرق بين التشبيه والاستعارة، فيقول(١) . « وههنا أصل يجب ضبطه ، وهو : أن جعل المشبه المشبه به على ضربين :

أحدهما : أن تنزله منزلة الشىء تذكره بأمر قد ثبت له ، فأنت لا تحتاج إلى أن تعمل فى إثباته وتزجيته ، وذلك حيث تسقط ذكر المشبه من البين ، ولا تذكره بوجه من الوجوه ، كقولك : رأيت أسداً .

والثانى : أن تجعل ذلك كالأمر الذى يحتاج إلى أن تعمل فى إثباته وتزجيته ، وذلك حيث تجرى اسم المشبه به صراحة على المشبه فتقول : زيد أسد ، وزيد هو الأسد ، أو تجيء به على وجه يرجع إلى هذا كقولك إن لقيته لقيت به أسداً ، وإن لقيته ليلقينك منه الأسد ، فأنت فى هذا كله تعمل فى إثبات كونه أسداً ، أو الأسد ، وتضع كلامك له ، وأما فى الأول فتخرجه مخرج مالا يحتاج فيه إلى إثبات وتقرير .

والقياس يقتضى أن يقال فى هذا الضرب — أعنى ماأنت تعمل فى إثباته وتزجيته — : أنه تشبيه على حد المبالغة ، ويقتصر على هذا ، ولا يسمى استعارة » .

وكأن عبد القاهر بهذا ، إنما يعد التجريد القائم على التشبيه مرحلة زادت

(١) دلائل الإعجاز ٤٥

فيها المبالغة فى التشبيه البليغ ، حتى أمكن أن يجرد من المشبه مثله فى الصفة التى يريد إثباتها له .

ولهذا عرف الخطيب القزوينى التجريد بما لا يخرج عن هذا المعنى ، وهو « أن ينتزع من أمر ذى صفة أمر آخر مثله فى تلك الصفة ، مبالغة فى كمالها فيه(١) » ، وعده محسنا معنويا من محسنات البديع ، سواء أكان قائماً على التشبيه أم لم يكن قائماً على التشبيه .

وأما ابن الأثير : فإنه يتشبه بابن جنى عند ذكره للتجريد ، إذ قال ابن جنى — فى بداية كلامه عنه : « هذا فصل من فصول العربية طريف حسن ، ورأيت أبا على — رحمه الله — به غريا معنيا ولم يفرد له باباً ، لكنه وسمه فى بعض ألفاظه بهذه السمة »(٢) .

فيقول ابن الأثير مجاريا هذه المقدمة لابن جنى : « وهذا اسم كنت سمعته . فقال القائل : التجريد فى الكلام حسن ، ثم سكت فسألته عن حقيقته ، فقال : كذا سمعت ، ولم يزد شيئا ، فأنعمت حينئذ نظرى فى هذا النوع من الكلام ، فألفى فى روعى أنه ينبغى أن يكون كذا وكذا ، وكان الذى وقع لى صواباً ، ثم مضى على ذلك برهة من الزمان ، ووصل إلى ماذكره أبو على الفارسى رحمه الله تعالى ، وقد أوردته هاهنا وذكرت ما أتيت به من ذات خاطرى من زيادة لم يذكرها ، وستقف أيها المتأمل على كلامه ، وكلامى »(٣) .

ثم عرف التجريد تعريفا لم يسمع عند غيره من العلماء ، إذ جعله خاصا باخلاص الخطاب لغيرك ، وأنت تريد به نفسك » ، وبهذا أخرج

(١) الإيضاح (شروح التلخيص ٤ / ٣٤٨
(٢) الخصائص ٣ / ٢٧٣ (٣) المثل السائر ٢ / ١٥٩

إهداء من شبكة الألوكة www.alu

نحو قولهم : «لئن لقيت زيداً لتلقين منه الأسد ، ولئن سألته لتسألن به البحر» ؛ وجعله تشبيها مضمر الأداة وهو في هذا ناظر إلى ما قاله الإمام عبد القاهر في الدلائل ، إذ جعله تشبيها على حد المبالغة والحق أن ابن الأثير لم يسمع عن التجريد إلا من كتاب «الخصائص» لابن جني ، وأن ما وصله عن التجريد بما ذكره أبو علي الفارسي ، إنما وصله عن طريق ابن جني في خصائصه ، لأن أبا علي لم يقل ما قاله عن التجريد في كتاب ، وإنما أخذه ابن جني عنه مشافهة كما ذكرت ، بدليل قوله : «وأنشدنا كذا» ، «وأنشدنا كذا» ، فقد ذكر الرواة أن ابن جني صحب أبا علي الفارسي أستاذه أربعين سنة»(١) .

ومما يدلك على أن ابن الأثير قد نقل ما نسبه إلى أبي علي الفارسي من كتاب الخصائص ما يلي :

أولا : أنه قد نقل قبل ذلك مما أسلفناه لك :

١ — موضوع : قوة اللفظ لقوة المعنى ، وذكر أنه نقله عن ابن جني .

٢ — موضوع غلبة الفروع على الأصول ، وسماه الطرد والعكس ، وصرح بالنقل عنه .

٣ — أنه نقل الاعتراض الذي أورده ابن جني على قول الشاعر (ولما قضينا من منى كل حاجة) كما نقل إجابته تقريباً ، دون أن يشير إليه .

ثانياً : أنه لم يشر إلى ما قاله ابن جني ، ولم يجر له هنا ذكراً ، مع أنه ينقل من كتابه : «الخصائص» ، ولو كان الذي وصله عن أبي علي الفارسي

(١) الخصائص ١ / ١٠ .

من طريق آخر غير كتاب الخصائص ، لذكر ما قاله ابن جني فيه — أيضا — إلى جانب ماذكره من هذا الطريق الآخر ، لأنه كان بين يديه وهو يؤلف المثل السائر بدليل نقله ما سبق عنه .

ثالثاً : أن العبارات التي نسبها ابن الأثير لأبي علي الفارسي ، إنما هي نفس عبارات ابن جني التي نقل بها تصور أبي علي للتجريد ، مع التصرف في بعض الفاظها .

وقد أسلفنا لك عبارات ابن جني التي لخص بها فهم أبي علي للتجريد ، ونحن ننقل إليك فيما يلي نص ما قاله ابن الأثير الذي ادعى أنه وصله عن أبي علي الفارسي لتقف على صحة ما ذهبنا إليه من أن ابن الأثير قد نقله من خصائص ابن جني .

يقول ابن الأثير : «وأما الذي ذكره أبو علي الفارسي — رحمه الله — فإنه قال : إن العرب تعتقد أن في الإنسان معنى كامناً فيه كأنه حقيقته ومحصوله فتخرج ذلك المعنى إلى ألفاظها ، مجرداً من الإنسان كأنه غيره ، وهو هو بعينه ، نحو قولهم : لئن لقيت فلاناً ، لتلقين به الأسد ، ولئن سألته لتسألن منه البحر ، وهو عينه الأسد والبحر ، لا أن هناك شيئا منفصلا عنه ، أو متميزاً منه ثم قال : وعلى هذا النمط : كون الإنسان يخاطب نفسه حتى كأنه يقاول غيره ، كما قال الأعشى :

وهل تطيق وداعاً أيها الرجل ؟

وهو الرجل نفسه ، لا غيره(١)

ولعلك قد لاحظت أن ابن الأثير قد غير عبارة ابن جني التي يبين بها معنى التجريد عند أبي علي الفارسي وهي قوله : «إن العرب قد تعتقد في الشيء من نفسه معنى آخر ، كأنه حقيقته ومحصوله»(٢) ، فجعلها هكذا : «إن

(١) المثل السائر ٢ / ١٧٤ (٢) الخصائص ٢ / ٤٧٤

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

العرب تعتقد أن فى الإنسان معنى كامناً فيه كأنه حقيقته ومحصوله ، فغير كلمة (فى الشىء) إلى كلمة (فى الإنسان) ، وذلك ليتسنى له الرد على أبى على الفارسى .

رد ابن الأثير على أبى على الفارسى :

يقول ابن الأثير — فى رده على أبى على الفارسى — : « والذى عندى فيه أنه أصاب فى الثانى ولم يصب فى الأول ، لأن الثانى هو التجريد ، ألا ترى أن الأعشى جرد الخطاب عن نفسه وهو يريدها ؟ .

وأما الأول — وهو : ولئن لقيت فلاناً لتلقين به الأسد ، ولئن سألته لتسألن منه البحر ، فإن هذا تشبيه مضمر الأداة ، إذ يحسن تقدير أداة التشبيه فيه ، فليس داخلا فى التجريد .

وأما قوله : إن العرب تعتقد أن فى الإنسان معنى كامناً منه كأنه حقيقته ومحصوله فأقول : وغير العرب أيضاً تعتقد ذلك .

فإن عنى بالمعنى الكامن معنى الإنسانية الذى هو الاستعداد للعلوم والصنائع ، فما هذا من الشىء الغريب الخفى الذى علمته العرب خاصة ، وانفرد باستخراجه أبو على — رحمه الله — !

وإن عنى بالمعنى الكامن ما فيه من الأخلاق كالشجاعة ، والسخاء فى المثال الذى ذكره . فليس الإنسان مختصا بهذا المعنى الكامن دون غيره من الحيوانات .

فالأخلاق إذا مشتركة بين الإنسان وغيره من الحيوانات ، غير أن الإنسان يجتمع فيه ما تفرق فى كثير منها .

ويخلص ابن الأثير من هذا الرد إلى ما يريده من تخطئة أبى على الفارسى فى كلامه من وجهين :

أحدهما : أنه جعل حقيقة الإنسان عبارة عن خلقه .

والآخر : أنه أدخل فى التجريد ما ليس منه(١) .

الرد على ابن الأثير :

ويمكننا أن نرد على ابن الأثير بما يلى :

أولا : أن قوله : « والذى عندى أنه أصاب فى الثانى ، ولم يصب فى الأول ، لأن الثانى هو التجريد » مبنى على أساس غير مسلم به ، وهو التعريف الذى افترض صحته ابن الأثير ، وهو : إخلاص الخطاب لغيرك ، وأنت تريد به نفسك ، وهو تعريف لم يقل به أحد غيره من البلاغيين .

ولهذا عرفه الخطيب بقوله : أن ينتزع من أمر ذى صفة ، أمر آخر مثله فى تلك الصفة مبالغة فى كمالها فيه(٢) ، وبهذا التعريف تدخل كل أنواع التجريد ، التى رفض دخولها ابن الأثير .

ثانياً : أن قوله فى : « لئن لقيت فلانا لتلقين به الأسد ، ولئن سألته لتسألن منه البحر » : إنه تشبيه مضمر الأداة ، قد نقله من دلائل الإعجاز ، لعبد القاهر إذ جعله تشبيها على حد المبالغة(٣) ، وأما قوله : « إذ يحسن

---

(١) المثل السائر ٢ / ١٦٧

(٢) الإيضاح (ضمن شروح التلخيص) ٤/ ٣٤٨

(٣) دلائل الإعجاز ٤٥

إهداء من شبكة الألوكة www.alu...

تقدير أداة التشبيه فيه ، فأخوذ — أيضاً — من أسرار البلاغة لعبد القاهر ؛ إذ جعل حسن دخول أداة التشبيه مفرقاً بين ما يرجح أن يكون تشبيها ، وما يرجح أن يكون إستعارة(١) .

فلما رأى عبد القاهر بعد هذا النوع تشبيها على حد المبالغة ظن أنه أخرجه عن التجريد ، فأخذ عنه هذا الرأى دون أن يشير إليه !

ثالثا : أن أبا على الفارسى لم يقل : « إن العرب تعتقد أن فى الإنسان معنى كامناً فيه » فقد غير ابن الأثير — كما أسلفنا لك — عبارة ابن جنى ، وهى : « إن العرب قد تعتقد فى الشىء من نفسه معنى آخر ، كان حقيقته ومحصوله » فجعل قوله : « تعتقد أن فى الإنسان » بدلا من قوله « تعتقد فى الشىء » ليتسنى له الرد الذى أسلفناه ؛ فكأنه اصطنع مبرراً للهجوم على أبى على الفارسى ؛ لكى يبدو ، وكأنه قد فاقه فى علمه !

على أن الذى أوحى له بهذا الرد هو ما قاله ابن جنى فى نهاية هذا الباب : « وقد دعا تردد هذا الموضع (أى مخاطبة النفس) على الأسماع وعادته الأفهام ، أن ذهب قوم ، إلى أن الإنسان هو معنى منطبس بهذا الهيكل الذى يراه ؛ ملاق له ، وهذا الظاهر عماس لذلك الباطن ، كل جزء منه منطو عليه ، ومحيط به »(٢) .

وهذا القول يعزى إلى الإمام مالك رضى الله عنه — وهو فى الحقيقة لأتباعه — فى جوهرة التوحيد :

ولاتخض فى الروح إذ ما وردا ... نص من الشارع لكن وجدا
لمالك هى صورة كالجسد ... فحسبك النص بهذا السند(٣)

(١) أسرار البلاغة ٢٦٤ (٢) الخصائص ٢/٤٧٦
(٣) الخصائص (تعليق الشيخ محمد على النجار) ٢/٤٧٦

المعانى المجازية للاستفهام

جاءت المعانى المجازية للإستفهام على لسان ابن جنى فى خصائصه من خلال الأبواب التى عقدها لدراسة اللغة ؛ ومن هذه الأبواب :

١ — باب فى إقرار الألفاظ على أوضاعها الأول ، ما لم يدع داع إلى الترك والتحول ، وعلى هذا فإن الإستفهام الذى جاء به ، إذا كان قد خرج عن معناه ؛ فإنما ذلك لداع دعا إليه ، وهو ما يسمى عند البلاغيين بالأغراض والمقاصد(١) .

٢ — باب فى التفسير على المعنى دون اللفظ ؛ ومعنى هذا أن اللفظ قد يكون فى صورته إستفهاما ، ولكن معناه قد يخرج إلى الخبر ، وهو موضع — كما يقول ابن جنى — قد اتعب كثيراً من الناس ، واستهواهم ، ودعاهم إلى سوء الرأى والإعتقاد ، تعلقهم بظواهر هذه الأماكن دون أن يبحثوا عن سر معانيها ، ومعاقد أغراضها(٢) .

٣ — باب فى نقض الأوضاع ، إذ ضامها طارىء عليها ، ومن ذلك : لفظ الإستفهام ، إذا إنضم إليه معنى التعجب صار خبراً ؛ ولفظ الواجب إذا لحقته همزة التقرير عاد نفيا ، وإذا لحقه لفظ النفى عاد إيجابا . أما تلك المعانى المجازية ، التى جاءت على لسان ابن جنى الاستفهام ؛ فى كما يلى :

١ — التحقيق :

فأما (هل) : فقد أخرجت عن بابها ، وهو الإستفهام ، إلى معنى

(١) الخصائص ٢/٤٦٢ (٢) الخصائص ٣/٢٦٠

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

(قـــد) وهو : التحقيق ، وذلك نحو قول الله تعالى : « هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكوراً(١) ؟» قالوا : معناه : قد أتى عليه ذلك .

ويرى العلامة ابن جنى أن هل يمكن أن تكون مبقاة فى هذا الموضع على بابها ، من الإستفهام ، فكأنه قال — والله أعلم — هل أتى على الإنسان هذا ؟ فلابد فى جوابه من نعم ؟ ملفوظا بها أو مقدرة أى : فكما أن ذلك كذلك ، فينبغى للإنسان أن يحتقر نفسه ، ولا يفخر بما فتح له .

وهذا كقولك لمن تريد الإحتجاج عليه بالله هل سألتنى فأعطيتك ؟ ! أم هل زرتنى فأكرمتك ؟ ! أى : فكما أن ذلك كذلك ، فيجب أن تعرف حق عليك ، وإحسانى إليك .

ويؤكد هذا المعنى عندك : قول الله تعالى : « إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً ، إنا هديناه السبيل » فعدد الله تعالى عليه أياديه وألطافه . وهذا المعنى الذى يقول به ابن جنى قريب من معنى التقرير ، لأن الله تعالى ، إنما أتى بالكلام على صيغة الإستفهام لأنه يعلم أن الإجابة لابد أن تكون بنعم وكأنه تعالى ، أراد أن يقر الإنسان بحقه عليه ، وإحسانه إليه .

ومن ذلك(٢) : قول الله تعالى : « يوم نقول لجهنم هل امتلأت ؟ وتقول : هل من مزيد ؟ »(٣) فقد قالوا : معناه : قد إمتلأت ، وهو — كما يقول ابن جنى — تفسير على المعنى دون اللفظ ، وهل مبقاة على استفهامها

(١) الإنسان ١
(٢) الخصائص ٣/٢٦٣
(٣) سورة ق ٣٠

وذلك كقولك للرجل — لا تشك فى ضعفه عن الأمر — هل ضعفت عنه ؟ وللإنسان — يحب الحياة — هل تحب الحياة ؟ أى : فكما تحبها ، فليكن حفظك لها ، وكما ضعفت عن هذا الأمر ، فلا تتعرض لمثله ، مما تضعف عنه ، وكأن الإستفهام ، إنما دخل هذا الموضع ، ليتبع الجواب عنه ، بأن يقال : نعم ، فيحتج عليه بإعترافه ، فيجعل ذلك طريقاً إلى وعظه ، أو تبكيته . وهكذا تجد أن ابن جنى يؤكد المعنى الذى فهمناه من أن (هل) بمعنى يقرب من معنى التقرير ، لأن الوعظ ، والتبكيت إنما يكونان لمن أقر بخطئه .

والدليل على ذلك قول ابن جنى بعد هذا الكلام مباشرة : ولو لم يعترف فى ظاهر الأمر به ، لم يقو توقيفه عليه ، وتحذيره من مثله ، قوته إذا اعترف به ، لأن الإحتجاج على المعترف أقوى منه على المنكر ، أو المتوقف .

ثم يقول : فكذلك قوله سبحانه : هل إمتلأت ؟ فكأنها قالت : لا ، فقيل لها : بالغى فى إحراق المنكر لذلك ، فيكون هذا خطاباً فى اللفظ لجهنم ، وفى المعنى للكفار .

وكذلك جواب هذا من قولها : هل من مزيد ؟ أى : أتعلم يا ربنا أن عندى مزيداً ؟ فجواب هذا منه — عز إسمه — لا ، أى : فكما تعلم أن لا مزيد ، فحسبى ما عندى .

فعلى هـــذا قالو — فى تفسيره — قد إمتلأت ، فتقول : ما من مزيد(١) .

(١) الخصائص ٣/٢٦٤

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وهكذا نجد أن (هل) — هنا — على الرأى الأول بمعنى (قد) أى : التحقيق ، وعلى رأى ابن جنى ، يكون معناها قريباً من معنى التقرير .

وقد تدخل همزة الإستفهام على (هل) فتخرجها عن معنى الإستفهام إلى الخبر ، وتكون — حينئذ — بمعنى (قد) ، أى للتحقيق ، لأنها ، لو بقيت على الإستفهام ، لا إمتنع ملاقاتها لهمزته لاستحالة إجتماع حرفين لمعنى واحد ، وذلك كقول زيد الخيل الطائى فى إغارته على بنى يربوع(١) .

سائل فوارس يربوع بشدتنا
أهل رأونا بسفح القف ذى الأكم ؟!

أى : سائل هؤلاء الفوارس عن شجاعتنا ، فقد رأوا شجاعتنا بذلك المكان !

٢ — التقرير :

قد تخرج الهمزة عن معنى الإستفهام إلى معنى التقرير ، والتقرير ضرب من الخبر ، وذلك ضد الاستفهام .

وهمزة التقرير إذا دخلت على النفى صار إثباتاً ، وإذا دخلت على الإثبات صار نفياً .

فمن دخولها على النفى الذى صار إثباتاً : قول جرير(٢) :

(١) الخصائص ٢/٤٦٣ ، وشواهد المغنى للبغدادى ٢/٥٢٧ والخزانة ٤/٥٠٦

(٢) شرح ديوان جرير (ط دار الأندلس ببيروت) ص ٩٨

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح؟!

أى : انتم كذلك

ومن دخولها على الإثبات الذى صار نفياً: قول الله تعالى: «آلله أذن لكم(١)» ، أى : لم يأذن لكم : وقول الله تعالى : «أأنت قلت للناس(٢) » ، أى : لم تقل للناس اتخذونى ، وأمى إلهين من دون الله .

ولو كانت الهمزة هنا ، استفهاما محضا ، لأقرت الإثبات على إثباته ، والنفى على نفيه : ولكنها إذا دخلت على الإثبات نفته ، وإذا دخلت على النفى نفته ؛ ونفى النفى إثبات .

ويستدل ابن جنى على صحة معنى التناكر فى همزة التقرير — أى دخولها على النفى فيصير إثباتا ، وعلى الإثبات فيصير نفيا — أنها أخلصت للإنكار ، فى نحو قولهم — فى جواب : ضربت عمرا ! ، أى أن من يقول هذا إنما يقوله إنكارا لضرب عمر :

٣ — الإنكار :

ويستدل ابن جنى ، فى موضع آخر من كتابه الخصائص(٣) ، أن الهمزة تفيد الإنكار ويمثل لذلك بقول الله تعالى : « أأنت قلت للناس » ، أى : ما قلت لهم ، وقوله تعالى : « آلله أذن لكم » ، أى : لم يأذن لكم .

لأنها دخلت على الموجب هنا ، فعاد نفيا .

وبقول الله تعالى : « ألست بربكم؟! » ، أى : أنا كذلك ، وقول جرير :

« ألستم خير من ركب المطايا ؟! »

(١) يونس ٥٩ (٢) المائدة ١١٦

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

أى : أنتم كذلك :

لأنها لحقت لفظ النفى ـ فى الآية الكريمة وفى البيت ـ فعاد إيجابا .

ثم يوضح معنى الإنكار هنا بأنه إنما كان الإنكار كذلك ، لأن منكر الشىء إنما غرضه أن يحيله ، إلى عكسه ، وضده ، ولهذا استحال به الإيجاب

وهكذا تجد أن ابن جنى قد جعل همزة الاستفهام ـ فى موضع من كتابه ـ للتقرير ، وجعلها ـ فى موضع آخر ـ للإنكار ، والأمثلة واحدة فى الموضعين وهو محقق فى الموضعين !

فقد بين لنا عبد القاهر ، كيف أن التقرير ، والانكار يجتمعان فى مثال واحد ، وذلك إذ يقول بعد أن أورد أمثلة للاستفهام التقريرى مع تقديم المسند اليه : واعلم أن الهمزة ـ فيما ذكرنا ـ تقرير بفعل قد كان ، وإنكار له لم كان ، وتوبيخ لفاعله عليه ، ومن الأمثلة التى أشار اليها عبد القاهر بذلك القول : قوله تعالى ـ حكاية عن قول نمروذ ـ « أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم[1] » .

ولهذا يقول الخطيب : إن من مجىء الهمزة للانكار ، نحو قوله تعالى « أليس الله بكاف عبده ؟! » وقول جرير :

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح ؟!

أى : الله كاف عبده ، وأنتم خير من ركب المطايا ، لأن نفى النفى إثبات ثم قال : وهذا مراد من قال : إن الهمزة فيه للتقرير ، أى : للتقرير بما

(١) دلائل الاعجاز ٨٩

دخله النفى[1] . ويرتب على هذا ، العلامة الدسوقى[2] أنه يصح أن يقال : إن الهمزة فيه للتقرير ، كما يصح أن يقال : إنها للانكار ، ومثله قول الله تعالى « ألم نشرح لك صدرك؟! » و « ألم يجدك يتيما فآوى؟! » ، فقد يقال : إن الهمزة للانكار . وقد يقال : إنها للتقرير ، وكلاهما حسن .

٤ ـ تجاهل العارف :

يذكر ابن جنى أن أوصاف الشعراء ، فى غزلهم ، إذا جاءت على طريق الشك كانت أعذب للفظ ، وأقرب إلى تقبل القول

فمذهبهم فى الغزل ونحوه : أن يظهروا شكا ، وتخالجا ، ليظهروا قوة الشبه ، استحكام الشبهة ، ولا يقطعوا قطع اليقين ألبته ، فينسبوا بذلك إلى الإفراط ، وغلو الاشتطاط ، وإن كانوا هم ومن بحضرتهم ، ومن يقرأ من بعد أشعارهم ، يعلمون أن لا حيرة هناك ولا شبهة ، ولكن كذا خرج الكلام على الاحاطة بمحصول الحال[3] .

ولهذا قال ذو الرمة :

أيا ظبية الوعساء بين جلاجل وبين النقا أأنت أم أم سالم؟!

وهذا مما لا يشك أحد ، فى أن كلامه ههنا قد خرج مخرج الشك ، لما فيه من عذوبته ، وظرف مذهبه .

ومنه قول الأخير :

أقول لظبى يرتعى وسط روضة أأنت أخو ليلى؟ فقال يقال!

(١) الايضاح ٨٣
(٢) حاشية الدسوقى (شروح التلخيص) ٢/٢٩٧
(٣) الخصائص ٢/٤٥٩ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وهذا الأسلوب هو ما يسمى عند البلاغيين بتجاهل العارف ، وقد وضعوه فى علم البديع ، ولكنه - وإن كان أسلوبا من أساليب البديع - إلا أنه قد خرج فيه الإستفهام عن معناه الحقيق إلى معان أخرى مجازية .

وقد ذكر ابن جنى أن المستفهم عن الشىء قد يكون عارفا به مع استفهامه فى الظاهر عنه لكن غرضه فى الاستفهام أشياء ، ومنها :

١ — أن يرى المسئول إنه خفى عليه ليسمع جوابه عنه.

٢ — أن يتعرف حال المسئول ، هل هو عارف بما السائل عارف به.

٣ — أن يرى الحاضر غيرهما أنه بصورة السائل المسترشد ، لما له فى ذلك من الغرض،

٤ — أن يعد ذلك لما بعده مما يتوقعه، حتى إن حلف بعد أنه قد سأله عنه حلف صادقا ، فأوضح بذلك عذرا(١).

وقد ذكر العلامة السبكى(٢). أنه قد جاء فى المصباح ، أن الاستفهام قد يأتى للمبالغة فى المدح كقوله :

بدا ، فراع فؤادى حسن صورته
فقلت : هل ملك ذا الشخص أم ملك؟

أو فى الذم ، كقول زهير:

وما أدرى وسوف إخال أدرى
أقوم آل حصن أم نساء ؟!

(١) الخصائص ٢٦٤/٢

(٢) عروس الأفراح (شروح التلخيص) ٣٠٦/٢

أو التذلة فى الحب ، كقول المجنون :

بالله يا ظبيات القاع قلن لنا
ليلاى منكن أم ليلى من البشر

وهذا موافق لما قاله ابن جنى من أن مذهب الشعراء ، فى مثل تلك الأوصاف أن يظهروا شكا وتخابلا ، لتكون أعذب للفظ ، وأقرب إلى تقبل القول .

٥ — التعجب :

يرى ابن جنى أن لفظ الاستفهام إذا ضامه معنى التعجب استحال خبراً وذلك مثل قولك : مررت برجل أى رجل ؟!

فأنت الآن مخبر بتناهى الرجل فى الفضل ، ولست مستفهما ، وكذلك قولك : مررت برجل أيما رجل ؟! لأن (ما) زائدة .

وإنما كان كذلك ، لأن أصل الاستفهام الخبر ، والتعجب ضرب من الخبر ، فكأن التعجب لما طرأ على الاستفهام ، أعاده إلى أصله من الخبرية(١).

(١) الخصائص ٢٦٩/٣

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

نفى الشيء بإيجابه

أورد ابن جنى هذا الفن من فنون القول تحت ما أسماه : « توجه اللفظ الواحد إلى معنيين اثنين »[1].

ومثل له بقولهم : (هذا أمر لا ينادى وليده) وذكر أن لفظه عين مختلف فيه ولكن اختلفوا فى تفسيره .

فقال قوم : إن الإنسان يذهل عن ولده ؛ لشدته ؛ فيكون هذا كقوله تعالى : « يوم تزونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت »[1] ؛ وقوله تعالى : « يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه »[2] .

وقال قوم : أى هو أمر عظيم ؛ فإنما ينادى فيه الرجال والجلة ، لا الإماء والصبية .

وقال آخرون — وهم أصحاب المعانى — : أى : لا وليد فيه فينادى ؛ وإنما فيه الكفاة ، والنهضة :

ولعل ابن جنى يقصد البلاغيين بهذا القول الأخير .

وقد مثل له من الشعر بقول امرىء القيس :

على لاحب لا يهتدى بمناره
إذا سافه العود الديا فى جرجرا

أى : لا منار فيه فيهتدى به .

---

(١) الحج ٢
(٢) عبس ٣٤ ، ٣٥

وبقول الآخر :

لا تفزع الأرنب أهوالها
ولا ترى الذئب بها ينجحر

أى : لا أرنب بها ، فتفزعها أهوالها .

وببيت الكتاب :

وقدر كنكف القرد لا مستعيرها
يعار ، ولا من بأتها يتدسم

أى : لا مستعير يستعيرها ، فيعارها ، لأنها — لصغرها ولؤمها — مأبية معيفه[1] .

وقد أعاد ابن جنى هذا الفن من فنون القول ، فى باب آخر من خصائصه بعنوان « باب فى الجمع بين الأشباه من حيث يغمض الإشتباه ، مفترضا أن يقول له قائل : من أين تجمع قول الله تعالى : « ولم يكن له ولى من الذل » مع قول امرىء القيس :

على لاحب لا يهتدى بمناره
إذا سافه العود النباطى جرجرا

ويجيب ابن جنى على هذا السؤال بأن معنى قوله : « ولم يكن له ولى من الذل »[2] ، لم يذل ، فيحتاج إلى ولى من الذل ، كما أن البيت معناه : لا منار به ، فيهتدى به ، ومثله قول الآخر :

لا تفزع الأرنب أهوالها ولا ترى الضب بها ينجحر

---

(١) الخصائص ٣/١٦٤
(٢) ختام سورة الإسراء

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وعليه قول الله تعالى: «فما تنفعهم شفاعة الشافعين»(١)، أى: لا يشفعون لهم، فينتفعوا بذلك، يدل عليه قوله عز اسمه: «ولا يشفعون إلا لمن ارتضى»، وإذا كان كذلك، فلا شفاعة إلا لمن ارتضى الله، وبهذا تعلم أنهم لو شفع لهم لم ينتفعوا بتلك الشفاعة، ومنه قولهم: (هذا أمر لا ينادى وليده)، أى: لا وليد فيه فينادى.

ثم يفترض ابن جنى أن قائلا قال: فإذا كان، لا منار به، ولا وليد فيه، ولا أرنب هناك، فما وجه إضافة هذه الأشياء إلى ما لا ملابسة بينها وبينه؟!

ويجيب ابن جنى قائلا: لا، بل هناك ملابسة، لأجلها صحت الإضافة وذلك: أن العرف أن يكون فى الأرض الواسعة منار يهتدى به، وأرنب تعلما، فإذا شاهد الإنسان هذا البساط من الأرض خاليا من المنار، والأرنب ضرب بفكره إلى ما فقده منهما فصار ذلك القدر من الفكر وصلة بين الشيئين، وجامعا لمعتاد الأمرين. وكذلك إذا عظم الأمر واشتدا الخطب علم أنه لا يقوم له ولا يحضر فيه إلا الأجلاد وذوو البسالة، دون الولدان وذوى الفزاعة، فصار العلم بفقدان هذا الضرب من الناس وصلة فيه بينها وعقدا فى تصاقبهما، وتدانى حاليهما(٢).

---

(١) المدثر ٤٨

(٢) الخصائص ٣/٣٢٢

موقف البلاغيين من هذا الباب:

جعل ابن رشيق هذا النوع من الكلام باباً من المبالغة، وسماه: نفى الشىء بإيجابه، وعده من محاسن الكلام(١) وتابعه ابن أبى الإصبع فى تسميته وعده من البديع.

وبهذا يكون هذا الأسلوب — عندهما — داخلا فى علم البديع.

وقد تابعهما العلامة السيوطى فى هذا الرأى، فسماه — أيضا — نفى الشىء بإيجابه، وعده فى علم البديع(٢).

ولكن ابن الأثير قد جعله النوع الثالث عشر من المقالة الثانية فى الصناعة المعنوية وعرفه بأنه: نفى الشىء بإيجابه، وهو نفس العنوان الذى نجده عند ابن رشيق، ولكنه سماه «عكس الظاهر».

وإنما سماه كذلك، لأنك تذكر كلاماً يدل ظاهره على أنه نفى لصفة موصوف، وباطنه نفى للموصوف أصلا.

ووقد بين ابن الأثير أن هذا الباب من مستطرفات علم البيان، وهو — وإن كان يطلق لفظة البيان على البلاغة كلها — إلا أنك تشعر بأنه يميل بهذا الأسلوب إلى أن يكون فى «المعانى»، لأنه يضعه بعد «قوة اللفظ لقوة المعنى».

على أن هذا النوع من الكلام لا نجد له ذكرا عند الخطيب، وإن كان ابن رشيق قد أتى بأمثلة كثيرة منه.

كما أن ابن الأثير، يرى أنه قليل الاستعمال، لأن الفهم يأباه، ولا يقبله

---

(١) العمدة ٢/٨٠.

(٢) شرح عقود الجمان للسيوطى ١٢٤.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

إلا بقرينة خارجة عن دلالة لفظه على معناه ، وما كان عارياً عن القرينة لايفهم منه ما أراد قائله .

وقد مثل له ابن الأثير بقول علي — رضي الله عنه — في وصف مجلس رسول الله ﷺ : « لاتنثى فلتاته » ، أي لاتذاع ، والمراد أنه لم يكن له فلتات فتنثى .

ولم يجد ما يمثل به من الشعر إلا قول امرىء القيس :

على لاحب لايهتدى بمناره إذا سافه العود الديافي جرجرا

وقول عمرو بن أحمد الباهلي من أبيات يصف بها فلاة :

لاتفزع الأرنب أهوالها ولا ترى الضب بها ينجحر

ويبدو أنه نقلهما من خصائص ابن جني ، ويذكر أنه طوف على أقوال الشعراء ، فلم يجد ما يمثل به لهذا النوع من الكلام من الشعر غير هذين(١) البيتين ، مع أن ابن رشيق قد أورد فيه من الشعر قدراً ، لابأس به .

(١) المثل السائر ٢/٢٥٠ .

الدلالة اللفظية والصناعية والمعنوية

كانت الدلالات عند الجاحظ شاملة للألفاظ ، وغيرها ، إذ كانت عنده خمسة أشياء لاتنقص ولاتزيد ، أولها : اللفظ ، ثم الإشارة ، ثم العقد ثم الخط ، ثم الحال(١) .

ثم وجدناها عند أبي الحسين اسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب أربعة أشياء : بيان الأشياء بذواتها ، وهو ماسماه لسان الحال ، وبيان الاعتقاد ، وهو مايحصل في القلب عند إعمال الفكر وبيان العبارة ، وهو النطق باللسان للأخبار عما في النفس ، وبيان بالكتابة ، ليبلغ من بعد(٢) أو غاب ، ثم وجدناها عند الرماني أربعة — أيضا — هي الكلام ، والحال والاشارة والعلامة(٣) .

ولكن حديث ابن جني هنا — عن أنواع الدلالات — مختلف تماما عما وجدناه عند الجاحظ ، وابن وهب ، والرماني ، فقد قصر الحديث على دلالة اللفظ ، ولعمري إنها لنظرة ثاقبة ، فالدلالة اللفظية أنسب بالبلاغة من الدلالات غير اللفظية ، لأنها محل بحث البلاغيين ، وموضع اهتمامهم ، والذي ذهب إليه ابن جني من قصر الدلالة على اللفظ ، بأنواعه ، أقرب إلى روح البلاغة ، فليس من المنطق في شيء أن نعد كل ما يؤدي إلى الإفهام نوعاً من البلاغة ، كالإشارة ، والعلامة ، بل ينبغي أن تكون البلاغة أبعد منالا ، وأرقى منزلة من مجرد الإفهام بمختلف الوسائل ، وإلا اتصف الناس جميعاً بالبلاغة(٤) !

(١) البيان والتبيين ١/٣٣ ، ٣٤ .
(٢) البرهان في وجوه البيان ٥٦ .
(٣) النكت ٩٨ .
(٤) أثر النحاة في البحث البلاغي ٢٧٩ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الدلالات : هى اللفظية ، والصناعية ، والمعنوية .

مراتبها : أقوى هذه الدلالات هى : اللفظية ، ثم تليها الصناعية ، ثم تليها المعنوية ومن ذلك : جميع الأفعال : فى كل واحد منها الأدلة الثلاثة .

فى (قام) — مثلا — دلالة لفظه على مصدره ، ودلالة بنائه على زمانه ، ودلالة معناه على فاعله ، فهذه ثلاث دلائل من لفظه ، وصيغته ، ومعناه .

وإنما كانت الدلالة الصناعية أقوى من المعنوية من قبل أنها ، وإن لم تكن لفظا فإنها صورة يحملها اللفظ ، ويخرج عليها ، ويستقر على المثال المعتزم بها ، فلما كانت كذلك لحقت بحكمه ، وجرت مجرى اللفظ المنطوق به ، فدخلا بذلك فى باب المعلوم بالمشاهدة ، وأما المعنى : فإنما دلالته لاحقة بعلوم الاستدلال ، وليست فى حيز الضروريات .

وذلك لأنك حين تسمع (ضرب) تعرف حدثه وزمانه ، ثم تنظر فيما بعد ، فتقول ، هذا فعل ولابد له من فاعل ، فليت شعرى من هو؟ وما هو؟ فتبحث حينئذ ، إلى أن تعلم الفاعل من هو ؟ وما حاله من موضع آخر ، لا من مسموع ضرب .

والألفاظ أدلة على إثبات معانيها :

فمن ذلك : قولهم : للسلم ، (مرقاة) بكسر الميم وللدرجة (مرقاة) بفتحها فنفس اللفظ يدل على الحدث ، وهو الرقى ، وكسر الميم يدل على أنها مما ينقل ، ويعتمل عليه ، وبه ، كالمطرقة ، والمئزر ، والمنجل ، بكسر الميم فيها ، ولكن فتح ميم مرقاه تدل على أنه مستقر فى موضعه ، كالمنارة والمثابة .

فنفس (رق) يفيد معنى الارتقاء ، وكسر الميم وفتحها يدلان على

ماسبق ، من معنى الثبات ، أو الانتقال وكذلك ، الضرب ، والقتل : نفس اللفظ يفيد الحدث فيهما ، ونفس الصيغة تفيد فيهما صلاحيهما للأزمنة الثلاثة .

وكذلك اسم الفاعل : نحو قائم وقاعد لفظه يفيد الحدث الذى هو القيام والقعود ، وصيغته وبناؤه يفيد كونه صاحب الفعل .

وكذلك قطع وكسر : فنفس اللفظ ههنا ، يفيد معنى الحدث ، وصورته تفيد شيئين أحدهما ، الماضى ، والآخر : تكثير الفعل .

كأن ضارب يفيد بلفظه الحدث ، وببنائه الماضى ، وكون الفعل من اثنين ، وبمعناه على أن له فاعلا(١) .

فالدلالات — عند ابن جنى — هى : اللفظية ، والصناعية ، والمعنوية وهو يمثل لها بجميع الأفعال : فدلالة الفعل على الحدث — أى المصدر — فى رأيه — هى اللفظية ، ودلالته على زمانه هى : الصناعية ، ودلالة معناه على فاعله ، هى المعنوية .

غير أنه وجد أن الدلالة المعنوية لاحقة بعلوم الاستدلال ، لأنك حين تسمع (ضرب) تعرف حدثه وزمانه ، ثم تفكر بعد ذلك فيمن وقع منه الضرب من موضع آخر ، لا من مسموع الضرب .

ومن هنا تجد : أن الدلالة اللفظية ، غير الدلالة المعنوية ؛ وهى التى يسميها عبد القاهر ، الدلالة العقلية ، لأن طريقها هو العقل .

وقد فرق عبد القاهر بين الدلالتين : اللفظية والعقلية — وهو يفرق

---

(١) الخصائص ٣/١٠١ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

بين المجازين واللغوى والعقلى — بأن مما يجب ضبطه فى هذا الباب : أن كل حكم يجب فى العقل وجوباً ، حتى لا يجوز خلافه فإضافته إلى دلالة اللغة ، وجعله مشروطاً فيها محال ، لأن اللغة تجرى مجرى العلامات والسمات ، ولا معنى للعلامة والسمة حتى يحتمل الشيء ما جعلت العلامة دليلا عليه وخلافه(١) .

(١) أسرار البلاغة ٣٠٠ .

الحقيقة والمجاز اللغويان

تعريفهما :

عرف ابن جنى الحقيقة بأنها : « ما أقر — فى الاستعمال — على أصل وضعه فى اللغة وأن المجاز هو : ما كان بضد ذلك ، أى ما لم يقر — فى الاستعمال — على أصل وضعه فى اللغة(١) .

وقد ردد الإمام عبد القاهر — فى الدلائل — هذا التعريف إذ قال : وذلك أن العادة قد جرت بأن يقال — فى الفرق بين الحقيقة والمجاز — : إن الحقيقة : أن يقر اللفظ على أصله فى اللغة ، والمجاز : أن يزال عن موضعه ، ويستعمل فى غير ما وضع له (٢) .

وهذا التعريف لا يبعد كثيرا عن تعريف عبدالقاهر للحقيقة فى الاسم المفرد بأنها : « كل كلمة أريد بها ما وقعت له فى وضع واضع ، وقوعاً لا يستند إلى غيره » وتعريفه للمجاز فى المفرد بأنه : « كل كلمة أريد بها غير ما وقعت له فى وضع واضعها لملاحظة بين الثانى والأول » (٣) .

غير أن عبدالقاهر هنا قد زاد عبارة : (لملاحظة بين الثانى والأول) وهى ما سمى عند المتأخرين بالعلاقة بين المعنى الحقيقى للفظ ، والمعنى المجازى له .

أما الخطيب القزوينى ، فقد عرف الحقيقة بأنها : الكلمة المستعملة

(١) الخصائص ٢/٤٤٢

(٢) دلائل الإعجاز ٢٨٠

(٣) أسرار البلاغة ٣٢٤ (تحقيق هـ . ريتر) .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فيما وضعت له فى إصطلاح به التخاطب ، وعرف المجاز بأنه : الكلمة المستعملة فى غير ما وضعت له فى إصطلاح به التخاطب ، على وجه يصح ، مع قرينة عدم إرادته (١) .

وقد زاد الخطيب هنا ، وجود القرينة المانعة من إرادة المعنى الحقيق للكلمة ليخرج الكناية من حيز المجاز .

وأما قوله: (على وجه يصح) فقد قصد به إشتراط وجود العلاقة(٢) بين المعنيين الحقيق والمجازى ، فهو ترجمة لقول عبد القاهر : لملاحظة بين الثانى والأول .

الفرق بين الحقيقة والمجاز:

يفرق إبن جنى بينهما ، بأن المجاز ، إنما يقع ، ويعدل إليه عن الحقيقة ، لمعان ثلاثة ، وهى : الاتساع ، والتوكيد ، والتشبيه ، فإن عدمت هذه الأوصاف كانت الحقيقة ألبته .

وبهذا الفرق بين الحقيقة والمجاز ، أدخل التشبيه فى حيز المجاز .

ويمثل ابن جنى للمجاز ، بقول النبى — ﷺ — فى الفرس : هو بحر ، فالمعانى الثلاثة موجودة فيه :

أما الاتساع ، فلأنه قد زاد فى أسماء الفرس التى هى : فرس ، وطرف ، وجواد ونحوها : البحر ، حتى إنه إن أحتيج إليه فى شعر ، أو سجع ، أو إتساع ، إستعمل إستعمال بقية تلك الأسماء ، لكن لا يفضى إلى ذلك إلا بقرينة تسقط الشبهة ، وذلك كأن يقول الشاعر :

(١) الإيضاح ١٥٣
(٢) شرح السعد ٤/٣٦

علوت مطا جوادك يوم يوم ... وقد ثمد الجياد ، فكان بحراً

وكأن يقول الساجع : فرسك هذا ، إذا سما بغرته كان فجراً ، وإذا جرى إلى غايته ، كان بحراً ، ونحو ذلك ، ولو عرى الكلام من دليل يوضح الحال لم يقع عليه بحر ، لما فيه من التعجرف فى المقال من غير إيضاح ولا بيان ، لأنك لو قلت : رأيت بحراً . وأنت تريد : الفرس ، لم يعلم بذلك غرضك ، فلم يجز قولك ، لأنه إلباس وإلغاز على الناس (١) .

ولعل هذا الذى قاله ابن جنى — هنا — من إشتراط وجود القرينة التى تسقط الشبهة فى ارادة المعنى الحقيقى للكلمة ، كان الأصل الذى أخذ منه البلاغيون للمجاز اللغوى شرط وجود القرينة المانعة من ارادة المعنى الأصلى للفظ (٢) .

كما أن قوله : « أما الاتساع ، فلأنه قد زاد فى أسماء الفرس التى هى فرس ، وطرف وجواد ، ونحوها : البحر » كان أصلا لادعائهم دخول المشبه فى جنس المشبه به ، اذ قالوا : وانما المراد أن المدعى بنى ادعاءه على أن الأسد — مثلا — جعل له بطريق التأول والمبالغة فردان : متعارف ، وهو الذى له الجراءة المتناهية ، والغاية فى القوة ، فى جثة ذى الأظفار ، والأنياب ، والشكل المخصوص .

وغير متعارف : وهو فرد آخر له تلك القوة والجراءة بنفسها ، لكن فى جثة الأدمى وكأن اللفظ موضوع للقدر المشترك بينهما ، كالمتواطىء ، (٣) .

(١) الخصائص ٢/٤٤٢
(٢) شروح التلخيص ٤/٢٥
(٣) مواهب الفتاح ٤/٦٦

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ويمضى ابن جنى مبينا ما فى الحديث الشريف من تشبيه ، وتوكيد ، فيقول :

وأما التشبيه : فلأن جريه يجرى فى الكثرة مجرى مائه .

وأما التوكيد : فلانه شبه العرض بالجوهر ، وهو أثبت فى النفوس منه ، والشبه فى العرض مختفية عنه ، ألا ترى أن من الناس من دفع الأعراض ، وليس أحد دفع الجواهر ؟!

ثم يمثل ابن جنى أيضا بقول الله تعالى : « وأدخلناه فى رحمتنا » مبيناً أن فيه الأوصاف الثلاثة المناسبة ، وهى الاتساع ، والتشبيه ، والتوكيد أما الاتساع ، فلانه كأنه زاد فى أسماء الجهات ، والمحال أسما هو : الرحمة .

وأما التشبيه : فلانه شبه الرحمة — وإن لم يصح دخولها — بما يجوز دخوله ، فلذلك وضعها موضعه .

وأما التوكيد : فلانه أخبر عن العرض بما يخبر به عن الجوهر ، وهذا تعان بالعرض وتفخيم منه ، إذ صير إلى حيز ما يشاهد ، ويلمس ، ويعاين (١) .

وأنت ترى ابن جنى : كأنه يميل إلى أن فى الكلام استعارة بالكناية ، فشبه الرحمة بمكان ، ودل على ذلك بلازم المشبه به ، وهو الإدخال ، والمعروف أن بالآية تجوزاً بالرحمة عن الجنة ، من إطلاق السبب على المسبب ، وهذا مجاز مرسل(٢) .

وحمل عليه قول عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود (٣) :

---

(١) الخصائص ٢/٤٤٣

(٢) تعليق الأستاذ محمد على النجار ٢/٤٤٣ من الخصائص .

(٣) ديوان الحماسة ٢/٢٩٨ والأمالى للقالى ٢/٢٢٣ والأغانى ٨/٩٤ والمختار من شعر بشار ١٥٤ منسوب إلى الحارث بن خالد المخزومى .

تغلغل حب عثمة فى فؤادى فبادیه مع الخافى يسير

فقد وصف بالتغلغل مالا يوصف به ، لأنه وصف يخص فى الحقيقة الأعيان لا الأحداث .

وهذا وجه الاتساع كما يقول ابن جنى .

فأما التشبيه ، فلأنه قد شبه ما لا ينتقل ولا يزول ، بما يزول وينتقل

وأما المبالغة والتوكيد ، فلأنه أخرجه عن ضعف العرضية إلى قوة الجوهرية ثم حمل عليه — أيضا — قول الآخر :

قرعت ظنابيب الهوى يوم عالج
ويوم النقا ، حتى قصرت الهوى قسرا

وقول الآخر :

ذهوب بأعناق المئين عطاؤه عزوم على الأمر الذى هو فاعله

وقول كثير :

غمر الرداء إذا تبسم ضاحكا علقت لضحكته رقاب المال

وقول طرفة :

ووجه كأن الشمس حلت رداءها عليه نقى اللون لم يتخدد

حيث جعل للشمس رداء ، وهو جوهر . لأنه أبلغ فى النور الذى هو العرض ثم يقول وهذه الاستعارات كلها داخلة تحت المجاز .

وهكذا ترى أن ابن جنى قد أطلق على ما فى الأبيات الأربعة بأنه استعارات وأن تلك الاستعارات داخلة فى دائرة المجاز .

مع أن ما فى البيت الثانى وهو قوله (بأعناق المئين) إنما هو من قبيل المجاز المرسل حيث عبر عن الإبل بأعناقها ، من إطلاق الجزء ، وإرادة الكل .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أما ما فى البيت الأول ، فهو من قبيل الإستعارة التمثيلية ، وهو قوله ، (قرعت ظنابيب الهوى) ، فالظنابيب جمع ظنبوب ، وهو حرف العظم اليابس من الساق ، وتقول : قرعت ظنبوب البعير ، إذا ضربت ظنبوبه ليتفتوخ لك فتركبه ، وقيل من هذا : قرع ظنابيب الشيء ذلله (١)

وأما قول كثير فهو من قبيل الاستعارة المجردة التى جاء الملائم فيها صفة معنوية ، فقد استعار الرداء للعطاء بعد أن شبه العطاء به فى الوقاية والحفظ ، إذ المال يصون العرض ، كما أن الرداء يصون السوءة ثم وصف الرداء (بالغمر) وهو ملائم للمستعار له وهو العطاء تجريداً للإستعارة (٢) .

وأما قول طرفة وهو قوله ، (حلت رداءها) فهو من قبيل الاستعارة بالكناية حيث شبه الشمس بإنسان ، ثم حذفه ودل عليه بإثبات لازمه وهو الرداء على سبل الإستعارة بالكناية .

(١) لسان العرب (مادة ظنب)

(٢) الإيضاح ١٧١ ، ومعاهد التنصيص ١٤٩/٢

المجاز المرسل

أسلفنا لك أن مصطلح « المجاز المرسل » لم يكن معروفا فى عصر ابن جنى ، ولهذا فإنه أتى بأمثلة منه ، ولم يسمه بهذا الإسم .

وهنا نذكر لك أنه قد أتى بباب أسماه باباً فى الاكتفاء بالسبب عن المسبب وبالمسبب عن السبب ، وأمثلته لا تعدو أن تكون ما أسماه المتأخرون مجازاً مرسلا .

وقد نوه ابن جنى به ، وذكر أنه موضع من العربية شريف لطيف ، وأنه واسع لمتأمله كثير ، وأنه قد ورد بكتابه منه ما لا يحصيه .

ومما ذكره — فى كتابه — مما أشار إليه هنا : ما ذكره من تجوز العرب فى تسميتهم الاعتقادات والآراء ، قولا ، وذلك لأن الاعتقاد يخفى فلا يعرف إلا بالقول ، أو بما يقوم مقام القول ، من شاهد الحال ، فلما كانت لا تظهر ، إلا بالقول سميت قولا ، إذ كانت سببا له ، وكان القول دليلا عليه ، « كما يسمى الشيء باسم غيره ، إذا كان ملابسا له » .

ومثله فى الملابسة : قول الله تعالى : « ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت » .

إذ معناه — والله أعلم — أسباب الموت ، إذ لو جاء الموت نفسه لمات به — لا محالة .

ومنه : تسمية المزادة الراوية ، والشجو نفسه الغائط ، ثم قال : وهو كثير (١) .

(١) الخصائص ١/١٩، ٢٠

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ومما أورده ابن جنى فى هـــذا الباب : قول الله تعالى : « فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله » .

لأن تأويله — والله أعلم — : فإذا أردت قراءة القرآن ، فاكتفى بالمسبب الذى هو : الإرادة .

ومنه قوله تعالى: « إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم » : أى : إذا أردتم القيام لها .

ومنه قوله تعالى : « فقلنا اضرب بعصاك الحجر ، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا » .

أى : فضرب ، فانفجرت ، فاكتفى بالمسبب الذى هو الانفجار عن السبب الذى هو : الضرب .

وإن شئت قلت : أكتفى بالسبب الذى هو : القول عن المسبب الذى : الضرب .

ومنه قول رؤبة :

يـا رب إن أخطأت أو نسيت
فأنت لا تنسـى ولا تمـــوت

أى : إن أخطأت ، أو نسيت ، فاعف عنى ، لنقصى وفضلك ، فاكتفى بذكر الكمال والفضل ، وهو السبب عن العفو ، وهو المسبب .

ومنه بيت الكتاب :

فإن تبخل سدوس بدرهميهـــا
فإن الريح طيبـــة قبـــول

أى : إن بخلت تركناها ، وانصرفنا عنها ، فاكتفى بذكر طيب الريح المعين على الارتحال عنها(١) .

ومنه ما ذكره لبعض المولدين :

جزت بالساباط يوما فإذا القينة تلجم

وهو رجل كانت له جارية ، فباعها ، واشترى بثمنها برذونا ، فمر به هذا الشاعر ، وهو يلجم ، فسماه قينة ، إذ كان شراؤه مسببا عن ثمن القينة .

وهذا ما سماه الخطيب : تسمية المسبب باسم السبب .

ثم أورد ابن جنى قول الله تعالى : « إنى أرانى أعصر خمرا » ، ثم قال: فاكتفى بالمسبب الذى هو : الخمر من السبب الذى هو العنب .

وقال الفرزدق :

قتلت قتيلا ، لم ير الناس مثله
أقبـــله ذاتومتين مســـــورا

وإنما قتل حيا ، يصير بعد قتله قتيلا ، فاكتفى بالمسبب عن السبب .

وقال الآخر :

قد سبق الأشقر ، وهو رابض
فكيـف لا يسبق إذ يراكض

يعنى مهرا سبقت أمه ، وهو فى جوفها ، فاكتفى بالمسبب ، الذى هو : المهر عن السبب الذى هو الأم(٢) .

---

(١) و (٢) الخصائص ٣/١٧٦

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

والآية الكريمة، وبيت الفرزدق من قبيل ما سماه الخطيب تسمية الشيء باسم ما يؤول إليه(١) .

وأما قول الآخر، فإنه من قبيل تسمية السبب باسم المسبب .

وقد نقل ابن الأثير عنوان هذا الباب الذى أورده هنا ابن جنى، وجعله الضرب الثانى من حذف الجمل، وهو الاكتفاء بالسبب عن المسبب وبالمسبب عن السبب، كما نقل بعض أمثلته(٢) .

ويؤخذ مما أوردناه لك، مما ذكره ابن جنى فى موضوع المجاز، الذى يسميه المتأخرون مجازاً مرسلا ، ما يلى :

١ — أن هذا النوع من المجاز اللغوى ، قد أفرده ابن جنى عن غيره من المجاز القائم على التشبيه ، ولم يضع له اسما ، وإنما جعله باباً فى الاكتفاء بالسبب عن المسبب ، وبالمسبب عن السبب، وأنه قد ذكر منه فى الخصائص ما لا يحصيه من الأمثلة .

٢ — أن ابن جنى لم يضع لهذا النوع من المجاز تعريفا ، ولكنه قد جرى على لسانه ما يمكن أن يكون تعريفا للمجاز المرسل ، وذلك هو قوله عندما ذكر تجوز العرب فى تسميتهم الاعتقادات والآراء قولا : « كما يسمى الشيء باسم غيره ، إذا كان ملابسا له » .

فكان المجاز المرسل عنده ، هو : تسمية الشى باسم غيره ، إذا كان ملابسا له » .

---

(١) الإيضاح ١٥٧

(٢) المثل السائر ٢/٢٧٢

٣ — أنه أرجع جميع العلاقات التى وجدها بالأمثلة التى ذكرها إلى علاقتين اثنتين هما : السببية ، والمسببية ، ولهذا فإنه وضع تلك الأمثلة فى باب الاكتفاء بالسبب عن المسبب ، وبالمسبب عن السبب .

إفادة البلاغيين من هذا الباب :

رأى الشريف الرضى المتوفى سنة ٤٠٦هـ ، أن أستاذه ابن جنى قد أفرد هذا النوع من المجاز ، لأنه لم يقم على التشبيه الذى اشترطه فى المجاز، فهم من هذا التصرف أن المجاز نوعان :

أحدهما : قائم على التشبيه ، والاخر قائم على نوع من الملابسة غير التشبيه ، ومن هذا : أنهم قد سموا ، الغيث سماء لأن نزوله يكون من جهة السماء قال الشاعر : .

إذا سقط السماء بأرض قوم
رعيناه ، وإن كانوا غضابا

أراد : إذا سقط الغيث ، ثم قال : رعيناه ، فرد الكلام على ما ينبت عن الغيث من الرعى الجميم ، والكلأ العميم ، ومثل هذا فى كلامهم مستفيض(٢)

ولهذا فإنه قد فرق بين المجاز القائم على التشبيه ، والمجاز القائم على نوع من أنواع الملابسة غير التشبيه عندما أراد بيان المجاز فى قول النبى ﷺ : « إن المسجد لينزى من النخامة (١) كما تنزى الجلدة فى النار » ، فقد قال فيه :

---

(١) المجاز فى اللغة العربية ١٥٥

(٢) النخامة : ما تدفعه من صدرك ، أو أنفك .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

. وهذا الكلام مجاز . وفيه قولان :

أحدهما . أن المسجد يتنزه عن النخامة — وهى البصقة — بمعنى أنه يجب أن يكرم عنها ، وألا يبتذل بها ، فإذا رؤيت عليه كانت شائنة له ، وزارية عليه ، فكان معها ، بمنزلة الرجل ذى الهيئة ، يشمئز مما يهجنه ، وينقبض عما يدنسه ، وأصل الأنزواء : الانحراف مع تقبض وتجمع .

والقول الآخر : أن يكون المراد أهل المسجد ، فأقيم المسجد فى الذكر مقامهم ، لما كان يشتمل عليهم وعلى ذلك قول الشاعر :

واستب بعدك — يا كليب — المجلس

والمراد : أهل المجلس ، لأن الاستباب (أى أن يسب بعضهم بعضا) لا يكون بين القاعات والجدران ، وإنما يكون بين الإنسان والإنسان ، فالمعنى أن أهل المسجد ينقبضون من النخامة ، إذا رأوها فيه ذهابا به عن الأدناس ، وصيانة له عن الأدران (٢) .

وواضح من هذين الرأيين اللذين أوردهما الشريف الرضى : أنه على الرأى الأول : شبه المسجد بالرجل ذى الهيئة ، لأنه جعله يشمئز مما يهجنه ، وينقبض عما يدنسه ثم حذف المشبه به وأبقى لازمه وهو الاشمئزاز والانقباض على سبيل الإستعارة المكنية وعلى الرأى الآخر : يكون قد سمى القوم مجلسا ، لاشتماله عليهم ، من تسمية الشىء باسم محله ، على حد قوله تعالى : « وأسأل القرية » أى ، أهلها ، وهذا هو المجاز المرسل .

وألم ابن رشيق المتوفى سنة ٤٥٦ هـ بما قاله ابن جنى فى الخصائص ، وماقاله الشريف الرضى فى المجازات النبوية ، فذكر أنهم خصوا به (أى بالمجاز)

(٢) المجازات النبوية ١٤٦، ١٤٧

باباً بعينه وإن كان يرى أن المجاز يشمل التشبيه والاستعارة والكناية ثم عرفه ومثل له بقوله « أن يسمى الشىء باسم ما قاربه ، أو كان منه بسبب ، كما قال جرير :

إذا سقط السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا

أراد المطر ، لقربه من السماء(١) .

وكان ابن رشيق لما رأى ابن جنى يقول : لا يعدل عن الحقيقة إلى المجاز إلا لمعان ثلاثة هى الاتساع ، والتوكيد ، والتشبيه ، ثم رآه يفرد لهذا النوع من المجاز اللغوى باباً خاصاً ، قال : إنهم خصوا به باباً بعينه ، ثم حاول أن يثبت أن التشبيه والكناية من المجاز (٢) ، دون أن يلحظ أن ابن جنى بتخصيصه لهذا النوع باباً ، قد قسمه إلى قسمين : قسم قائم على التشبيه ، وقسم قائم على ملابسة من الملابسات غير التشبيه ، وأن الشريف الرضى قد قسمه — أيضاً — متابعا لابن جنى .

وكان صنيع ابن جنى ، والشريف الرضى فى التفريق بين قسمى المجاز اللغوى دافعاً لعبد القاهر الجرجانى المتوفى سنه ٤٧١ هـ إلى أن يعيب على الآمدى إطلاقه اسم الاستعارة على (المجلس) فى قول البحترى :

فكأن مجلسه المحجب محفل وكأن خلوته الخفية مشهد

ثم يفرق التفريق النهائى بين القسمين ، فيقول عن أبى القاسم الامدى :

قال — فى أثناء فصل يبحث فيه عن شىء اعترض به على البحترى فى قوله :

فكأن مجلسه المحجب محفل وكأن خلوته الخفية مشهد

(١) العمدة : ١/١٦٦ (٢) العمدة : ١/٢٦٨

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

إن المكان لا يسمى مجلسا إلا وفيه قوم ، ثم قال : ألا ترى ، إلى قول المهلهل : (واستب بعدك — يا كليب — المجلس(١)) على الاستعارة فاطلق الاستعارة على وقوع المجلس هنا بمعنى القوم الذين يجتمعون فى الأمور ، وليس المجلس إذا وقع على القوم من طريق التشبيه ، على وجه وقوع الشيء على مايتصل به ، وتكثر ملابسته إياه .

ثم قال : وأى شيء يكون بين القوم ومكانهم الذى يجتمعون فيه ؟ إلا أنه لا يعتد بمثل هذا ، فإن ذلك قد يتفق حيث ترسل العبارة(٢) .

ومن هنا سمى المتأخرون هذا النوع من المجاز : المجاز المرسل ، أخذا من قول عبد القاهر : فإن لك قد يتفق حيث ترسل العبارة .

ولما كان التفريق بين نوعى المجاز اللغوى مأخوذاً من نوع العلاقة التى ذكرها ابن جنى — فى قوله : كما يسمى الشيء باسم غيره إذا كان ملابسا له . فقد عرفه الخطيب بذكر هذه العلاقة ، وهى الملابسة بغير التشبيه ، فقال فى تعريفه : هو ما كانت العلاقة بين ما استعمل فيه وما وضع له ملابسة غير التشبيه ، وذكر من علاقاته :

١ — تسمية الشيء باسم سببه ، كاستعمالهم اليد فى النعمة ، كقولك : لفلان على يد لا أنكرها .

٢ — تسمية الشيء باسم المسبب : كقولهم أمطرت السماء نباتا

٣ — تسمية الشيء باسم جزئه ، كاستعمال العين فى الربيئة ، لكون الجارحة المخصوصة هى المقصود فى كون الرجل ربيئة ، لأن ما عداها

---

(١) الموازنة ٣٥٧ والحيوان للجاحظ ٣/١٢٨ ، ديوان المعانى ١/٢٠٤ والصناعتين ٢٠٣

(٢) أسرار البلاغة ٣٧١

لا يغنى شيئا ، مع فقدها ، فصارت كأنها الشخص ، ومنها قول الله تعالى : قم الليل إلا قليلا » .

٤ — تسمية الشيء باسم كله ، نحو قوله تعالى ، يجعلون أصابعهم فى آذانهم أى أى أنا ملهم .

٥ — ومنها : تسمية الشيء باسم ما كان عليه ، كقوله تعالى : وآتوا اليتامى أموالهم أى : الذين كانوا يتامى .

٦ — ومنها : تسمية الشيء بأسم مايؤول إليه ، كقوله تعالى إنى أرانى أعصر خمراً »

٧ — تسمية الشيء باسم محله ، كقوله تعالى « فليدع ناديه »

٨ — تسميه الشيء باسم آلته كقوله تعالى : وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه »(١) .

---

(١) الإيضاح ١٥٧

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

المجاز العقلي

لم يضع ابن جنى للمجاز العقلى باباً ، ولم يفرد له فصلا ، ولم يميزه من المجاز اللغوى ، وإنما جاء ، فى مثال ، من أمثلته التى ضربها للمجاز عموما .

وذلك أنه من خلال حديثه عن سعة المجاز ، فى اللغة العربية ، قال : ألا ترالك قد تقـــول : (قطع الأمير اللص) ، ويكون القطع له بأمره لا بيده ، فإذا قلت : قطع الأمير نفسه اللص ، رفعت المجاز ، من جهة الفعل ، وصرت إلى الحقيقة ، لكن يبقى عليك التجوز من مكان آخر ، وهو قولك : اللص ، وإنما لعله قطع يده ، أو رجله ، فإذا احتطت ، قلت ، قطع الأمير نفسه يد اللص ، أو رجله .

وكذلك : (جاء الجيش أجمع) ، ولولا ، أنه قد كان يمكن أن يكون إنما جاء بعضه — وإن أطلقت المجيء على جميعه — لما كان لقولك : أجمع معنى[1] .

وهكذا تجد أن ابن جنى قد نبه إلى أنه يمكن أن يكون فى قولهم : (قطع الأمير اللص) مجازين :

أحدهما : فى إسناد الفعل (قطع) إلى غير الأمير ، ولكن بأمره .

والآخر : فى (اللص) ؛ لأنه ربما يكون قد قطع يده ، أو رجله .

والأول مجاز عقلى علاقته السببية ، والآخر : مجاز لغوى علاقته الكلية .

---

(١) الخصائص ٢/٤٥٠

وابن جنى بهذا ، قد نبه إلى الفرق بين المجاز العقلى وإن لم يسمه بهذا الاسم — وبين المجاز اللغوى .

ولعل هذا المثال الذى بحث ابن جنى ما فيه من مجاز ، بتلك الطريقة التى رأيتها ، كان خيط النور الذى اهتدى به عبد القاهر فى بيان الفرق بين المجاز العقلى والمجاز اللغوى :

فكما أن ابن جنى قد بحث فى هذا المثال من جهتين : جهة الفعل الذى أردت إثباته ، وهو القطع ، وجهة من وقع عليه القطع وهو اللص فكذلك بحث عبد القاهر المجاز والجملة من هاتين الجهتين ، مبيناً أنه من حقك إذا أردت أن تقضى فى الجملة بمجاز أو حقيقة ، أن تنظر إليها من جهتين :

إحداهما : أن تنظر إلى ما وقع بها من الإثبات ، اهو فى حقه وموضعه ، أم قد زال عن الموضع الذى ينبغى أن يكون فيه ؟

والثانية : أن تنظر إلى المعنى المثبت ، يعنى ما وقع عليه الإثبات ، كالحياة فى قولك : أحيا الله زيداً ، والشيب فى قولك : أشاب الله رأسى ، أثابت على الحقيقة ، أم قد عدل به عنها ؟ .

ثم بين أنه إذا مثل لك دخول المجاز على الجملة من الطريقين عرفت إثباتها على الحقيقة منها .

فمثال ما دخله المجاز من جهة الإثبات قوله :

وشيب أيام الفـــراق مفارقى
وأنشرن نفسى فوق حيث تكون

ومثال مادخل المجاز فى مثبته دون إثباته : قوله عز وجل : « أو من كان ميتاً فأحييناه ، وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس »

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وقد يتصور أن يدخل المجاز للجملة من الطرفين جميعاً ، كقول المتنبي :

وتحيي له مال الصوارم والقنا ويقتل ما تحيي التمتم والجدا

ثم فرق الإمام عبد القاهر بين المجاز العقلي ، والمجاز اللغوي ، بأنه إذا وقع في الإثبات فهو ملتقى العقل ، فإذا عرض في المثبت فهو ملتقى من اللغة(١) .

ولهذا ، فإن ما وقع من المجاز في الاثبات جدير بأن يسمى مجازاً عقلياً ، لأنه مستقى من العقل ، وما وقع من المجاز في المثبت جدير بأن يسمى مجازاً لغوياً ، لأنه مستقى من اللغة .

إسناد الفعل إلى مصدره :

من صور المجاز العقلي التي تعرض لها ابن جني ، في مواضع أخرى من كتابه : إسناد الفعل إلى مصدره ، وذلك إذا وصف بالمصدر ، مبالغة في كثرة الحدث ، ويؤخذ من كلامه ، أن المبالغة - هنا - تأتي من وجوه .

الأول : أن الوصف بالمصدر مفيد للوصف بجميع الجنس(٢) ، فإذا قيل : رجل عدل ، فكأنه وصفه بجميع الجنس مبالغة ، كما تقول : استولى على الفضل ، وحاز جميع الرياسة والنبل ، ولم يترك لأحد نصيباً في الكرم والجود ، ونحو ذلك ، فوصف بالجنس أجمع تمكيناً لهذا الموضع وتوكيداً

والثاني : أن من وصف بالمصدر ، فقد جعل موصوفه نفس الحدث(٣) وذلك كقولك : هذا رجل زور ، وصوم

(١) أسرار البلاغة ٢٩٧ (٢) الخصائص ٢/٢٠٢
(٣) الخصائص ٣/١٨٩

ومنه قوله تعالى : ﴿إن أصبح ماؤكم غورا﴾ ، أي : غائرا ، وقول الخنساء

فإنما هي إقبال وإدبار

أي . مقبلة . مدبرة

والثالث : أنه إذا وصف بالمصدر ، صار الموصوف كأنه - في الحقيقة - مخلوق من ذلك الفعل ، وذلك لكثرة تعاطيه له ، واعتياده إياه ويدل على أن هذا معنى لهم ، ومتصور في نفوسهم قوله :

ألا أصبحت أسماء جاذمة الحبل وضنت علينا والضنين من البخل

أي : كأنه مخلوق من البخل لكثرة ما يأتي به منه .

ومنه قول الآخر :

وهن من الإخلاف والولعان

وقوله :

وهن من الاخلاف بعدك والمطل

وأصل هذا الباب - عند ابن جني - قول الله - عز وجل - : ﴿خلق الإنسان من عجل﴾ ، فقولك : هذا رجل دنف بكسر النون ، أقوى إعرابا ، لأنه هو الصفة المحضة غير المتجوزة ولكن قولك : هذا رجل دنف بفتح النون ، أقوى معنى ، لكونه كأنه مخلوق من ذلك الفعل(١) .

والرابع : أن هذا المعنى الذي فهمه ابن جني من الآية الكريمة ، خلق الإنسان من عجل ، وهو : أنه جعل الإنسان كأنه مخلوق من العجل نفسه لكثرة فعله إياه ، واعتياده له ، أقوى معنى من أن يكون أراد خلق العجل

(١) الخصائص ٣/٢٦٠

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

من الإنسان — على طريق القلب — ؛ لأنه أمر اطرد ، واتسع ، فحمله على القلب يبعد فى الصنعة ، ويصغر المعنى ، وكأن هذا المعنى ، لما خفى على بعضهم — كما يقول ابن جنى — قال فى تأويله : إن العجل هنا هو الطين .

ويرد ابن جنى على هذا الرأى : بأن هذا المعنى — وإن صح فى اللغة — إلا أنه هنا لا يصح إلا أن يراد به نفس العجلة ، والسرعة ، بدليل قوله تعالى — عقبه — « سأريكم آياتى فلا تستعجلون » ونظيره قوله تعالى « وخلق الإنسان عجولا » ، « وخلق الإنسان ضعيفا » ، لأن العجلة ضرب من الضعف ، لما تؤدى به من الضرورة والحاجة(١) .

(١) الخصائص ٢/٢٠٤

المجاز بالحذف والزيادة

يذكر ابن جنى أن من المجاز : كثير من باب الشجاعة فى اللغة ، من الحذوف ، والزيادات ، والتقديم ، والتأخير ، والحمل على المعنى ، والتحريف .

غير أنه قد نبه على ماجاء من باب الحذف مما يعده مجازاً ، فقال : ألا ترى أنك إذا قلت : بنو فلان يطؤهم الطريق ، ففيه من السعة : إخبارك عما لا يصح وطؤه بما يصح وطؤه ، فتقول على هذا : أخذنا على الطريق الواطىء لبنى فلان ، ومررنا بقوم موطوئين بالطريق وباطريق : طأ بنا بنى فلان ، أى أدنا إليهم ، وتقول : بنى فلان بيته على سنن المارة ، رغبة فى طئة الطريق بأضيافه له ، أفلا ترى إلى وجه الإتساع عن هذا المجاز ؟ ! .

ووجه التشبيه : إخبارك عن الطريق بما تخبر به عن سالكيه ، فشبهته بهم إذ كان هو المؤدى لهم ، فكأنه هم .

وأما التوكيد : فلأنك إذا أخبرت عنه بوطئه إياهم كان أبلغ من وطء سالكيه لهم ، وذلك أن الطريق مقيم ملازم ، فأفعاله مقيمة معه ، وثابتة بثباته وليس كذلك أهل الطريق ؛ لأنهم قد يحضرون فيه ويغيبون عنه ، فأفعالهم — أيضاً — كذلك ، حاضرة وقتاً ، وغائبة آخر ، فأين هذا مما أفعاله ثابتة مستمرة ؟ !

ولما كان هذا كلاماً ، الغرض فيه المدح والثناء ، اختاروا له أقوى اللفظين لأنه يفيد أقوى المعنيين(١) .

(١) الخصائص ٢/٤٤٦

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

فقد رأيت أن ابن جنى يعد قولهم : (بنو فلان يطؤهم الطريق) من باب المجاز وأنه شبه الطريق بسالكيه ؛ لأنه هو المؤدى إليهم ؛ وهو بهذا ينحو نحو الإستعارة بالكناية .

كما أنك قد رأيت أن ابن جنى قد وضع هذا المثال فى عداد ما فيه مجاز طريقه الحذف ؛ لأن هذا المجاز ، فى المثال حقيقته : بنو فلان يطؤهم السالكون فى الطريق المؤدى إليهم .

وقد أضاف ابن جنى إلى هذا المثال قول الله سبحانه : « واسئل القرية التى كنا فيها »(١) ، وذكر أن فيه المعانى الثلاثة : الإتساع ، والتشبيه ، والتوكيد .

أما الإتساع : فلأنه استعمل لفظ السؤال مع مالا يصح فى الحقيقة ، سؤاله .

وأما التشبيه : فلأنها شبهت بمن يصح سؤاله لما كان بها ، ومؤالفاتها .

وأما التوكيد : فلأنه فى ظاهر اللفظ إحالة بالسؤال عن من ليس من عادته الإجابة ، فكأنهم تضمنوا لأنبيهم — عليه السلام — أنه إن سال الجمادات ، والجبال أنبأته بصحة قولهم ، وهذا تناه فى تصحيح الخبر ، أى : لو سألتها لأنطقها الله بصدقنا ؛ فكيف لو سألت من من عادته الجواب(٢) ؟ !

وهذه الآية الكريمة — أيضاً — بها مجاز طريقه الحذف ، لأن

(١) يوسف ٨٢

(٢) الخصائص ٢/٤٤٧

التقدير : واسأل أهل القرية ، ولكن ابن جنى — كما أسلفنا لك فى المثال السابق — يميل إلى أن بها ماعرف عند المتأخرين بالإستعارة بالكناية .

والحق أن هذا النوع من المجاز ، إنما هو مجاز مرسل علاقته المحلية لأن تقدير المثال : بنو فلان يطؤهم أهل الطريق ، كما أن تقدير الآية الكريمة : واسأل أهل القرية(١) .

وفى المجاز المرسل من المبالغة المقصودة من المثال ، والآية الكريمة ، ما يطمئن ابن جنى ، ففى المثال ما يفيد كثرة التردد على هؤلاء القوم حتى شمل التردد الطريق نفسه ، وفى الآية الكريمة : مايفيد الطلب الإكثار من السؤال ، حتى يعم السؤال القرية نفسها بأرضها وسمائها ، وبنائها .

والمجاز المرسل مصطلح لم يكن معروفا فى عصر ابن جنى ، فقد أعلن عنه عبد القاهر — فى الأسرار — إذ بين خطأ الآمدى ، إذ قال فى أثناء فصل بحث فيه عن شىء اعترض به على البحترى فى قوله :

فكأن مجلسه المحجب محفل
وكأن خلوته الخفية مشهد

إن المكان لا يسمى مجلساً إلا وفيه قوم ، ثم قال : ألا ترى إلى قول المهلهل : (واستب بعدك يا كليب المجلس) على الإستعارة ، فأطلق الإستعارة على وقوع المجلس هنا بمعنى القوم الذين يجتمعون ، وليس المجلس إذا وقع على القوم من طريق التشبيه ، بل على وجه وقوع الشىء على ما يتصل به ، وتسكن ملابسته إياه ، وأى شىء يكون بين القوم

(١) الكشاف ٢/٣٣٧

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ومكانهم الذي يجتمعون فيه ؟ إلا أنه لا يعتد بمثل هذا القول ، فإن ذلك قد يتفق حيث ترسل العبارة(١) .

فأخذ المتأخرون مصطلح المجاز المرسل ، من قول عبد القاهر : فإن ذلك قد يتفق حيث ترسل العباره .

وقد اهتم الإمام عبد القاهر بما أثاره ابن جنى من المجاز الذى قد يأتى عن طريق الحذف ، أو عن طريق الزيادة ، فعقد فصلا يبين فيه متى يكون الحذف أو الزيادة مجازاً(٢) :

فبين : أن الكلمة كما توصف بالمجاز ، لنقلك لها عن معناها ، فإنها توصف بالمجاز — أيضا — لنقلها عن حكم كان لها ، إلى حكم ليس هو بحقيقة فيها ، ثم مثل بقول الله تعالى : « واسأل القرية » ، مبيناً أن الأصل هو : واسأل أهل القرية ، وأن المضاف إليه قد اكتسى إعراب المضاف فى الآية الكريمة .

فالحكم الذى يجب للقرية فى الأصل ، وعلى الحقيقة ، هو : الجر ، والنصب فيها مجاز .

ثم أضاف إلى الآية الكريمة فى هذا الحكم نفس المثال الذى أورده ابن جنى ، وهو قولهم : (بنو فلان تطؤهم الطريق) ، يريدون أهل الطريق ، فالرفع فى الطريق مجاز ، لأنه منقول إليه عن المضاف المحذوف ، الذى هو : الأهل ، والذى يستحقه فى أصله هو : الجر .

ثم ذكر عبد القاهر : أنه لا ينبغى أن يقال فى وجه المجاز — هنا —

---

(١) أسرار البلاغة ٣٧١ (تحقيق هـ . ريتر) .

(٢) أسرار البلاغة ٣٨٣ (تحقيق هـ . ريتر) .

إنه الحذف ، لأن الحذف إذا تجرد عن تغيير حكم من أحكام مابقى بعد الحذف لم يسم مجازاً . وحكم الزيادة — عند عبد القاهر — حكم الحذف ، فإذا لم يحدث الزائد حكما جديداً فى الكلمة ، فإنها لاتسمى مجازاً ، وذلك كزيادة (ما) فى قوله تعالى : « فبما رحمة من الله » ، وذلك لأن حقيقة الزيادة فى الكلمة هى : أن تعرى من معناها ، وتذكر ، ولافائدة لها سوى الصلة ، ويكون سقوطها ، وثبوتها سواء .

ومحال أن يكون ذلك مجازاً ، لأن المجاز هو : أن يراد بالكلمة غير ماوضعت له فى الأصل أو يزاد فيها ، أو يوهم شيء ليس من شأنها ، كإيهامك بظاهر النصب فى القرية : أن السؤال واقع عليها ، والزائد الذى سقوطه كثبوته ، لايتصور فيه ذلك .

وإذا أحدث الزائد حكما تزول به الكلمة عن أصلها : جاز — حينئذ — أن يوصف ذلك الحكم ، أوما وقع فيه بأنه مجاز ، وذلك كقولك فى نحو قول الله تعالى : « ليس كمثله شيء » ، إن الجر فى المثل مجاز ، لأن أصله النصب ، والجر حكم عرض من أجل زيادة الكاف .

وقد أفاد ابن الأثير من باب الفرق بين الحقيقة والمجاز ، فى خصائص ابن جنى إفادة كبيرة :

وذلك لأنه لما رأى ابن جنى يقول : « إن المجاز يقع ويعدل إليه عن الحقيقة لمعان ثلاثة ، وهى : الإتساع ، والتوكيد ، والتشبيه ، فإن عدمت هذه الأوصاف كانت الحقيقة ألبته » ، أخذ أقسام المجاز ، أو تقسيمه من عبارة ابن جنى فقسم المجاز إلى : توسع فى الكلام ، وتشبيه ، ولكنه لما وجد ابن جنى قد مثل للمجاز بما فيه استعارة ، كما فى (قرعت ظنابيب الهوى) و (غمر الرداء) و (وجه كأن الشمس حلت رداءها) ، أدرك خطأ تقسيمه ، فقال متردداً : « وإن شئت قلت : إن المجاز ينقسم إلى : توسع

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

في الكلام ، وتشبيه ، واستعارة، ولا يخرج عن أحد هذه الأقسام الثلاثة فإنها وجد كان مجازاً »(١).

وهكذا يقسم ابن الأثير المجاز تقسيما مخالفاً لما عليه جمهور البلاغيين !

فقد جعل التوسع في الكلام قسما من أقسام المجاز ، وليس عند البلاغيين للمجاز قسم بهذا الاسم !، ولكنهم عدوا ما أسماه ابن جني توسعاً في الكلام قسما من أقسام الاستعارة، وهو الاستعارة بالكناية ،لأنهم رأوا ابن جني يميل في تقدير أمثلته — كما أسلفنا — إلى أن يكون استعارة بالكناية ، بينما أثر ابن الأثير مصطلح ابن جني وهو : التوسع في الكلام، ثم قسمه قسمين آخرين أطلقه فيهما على ما قبح من أمثلة الاستعارة بالكناية، وعلى ما حسن منها .

ثم جعل التشبيه — أيضاً — قسما من أقسام المجاز ، مع أن جمهور البلاغيين قد أخرجه من حيز المجاز، وأدخله في حيز الحقيقة ، لأن دلالته مطابقية .

وعلى الرغم من كثرة ما نقل ابن الأثير من خصائص ابن جني،فإنه يورد عبارته التي أخذ عنها أقسام المجاز ، ليرد عليها ، فيسقط منها : التوكيد ، ليسلم له تقسيم المجاز إلى: توسع في الكلام ، وتشبيه ، واستعاره ! ،فيقول: «وكنت تصفحت كتاب :(الخصائص)لأبي الفتح عثمان بن جني ، فوجدته قد ذكر في المجاز شيئا يتطرق إليه النظر ،وذلك أنه قال:لا يعدل عن الحقيقة إلى المجاز إلا لمعان ثلاثة وهي : الإتساع ، والتشبيه ، والتوكيد ، فإن عدمت الثلاثة ، كانت الحقيقة البتة .

(١) المثل السائر ٢/٧١

فمن ذلك قوله تعالى : « فأدخلناه في رحمتنا»(١) فهذا مجاز ، وفيه الثلاثة المذكورة :

أما الإتساع : فهو : أنه زاد في أسماء الجهات والمحال اسما ، وهو الرحمة .

وأما التشبيه : فإنه شبه الرحمة — وإن لم يصح دخولها — بما يصح دخوله .

وأما التوكيد: فهو : أنه أخبر عما لا يدرك بالحاسة بما يدرك بالحاسة، تعالياً بالمخبر عنه ، وتفخيما له،إذا صير بمنزله ما يشاهد ويعاين ،ثم يقول: هذا مجموع قول أبي الفتح — رحمه الله — من غير زيادة ولا نقص.

وأنت تشعر من قول ابن الأثير : « من غير زيادة ولا نقص » أنه يخفي وراءها شيئا ما ! أما الذي يخفيه ابن الأثير وراء هذه الكلمة فهو أمران :

أولهما:أنه وإن لم يزد على ما قاله ابن جني،فلقد ترك مما قاله أمثلة أخرى، كقول النبي ﷺ في الفرس هو بحر ، والأبيات الأخرى التي أضافها إلى الآية الكريمة ، والحديث النبوي الشريف ، ولكنه انتقى الآية الكريمة ليتأتى له الرد على ابن جني بما سنورده لك، كما أنه قد ترك حرفا واحدا هو الكاف من عبارة ابن جني : (كأنه زاد في أسماء الجهات والمحال اسما هو الرحمة) ،لكي يتحقق له غرضه من رده !

والآخر : هو أنه يريد نقد ابن جني ليسلم له التقسيم الذي وضعه ، وأنه أتى بتقسيم لم يسبق إليه !

(١) المثل السائر ٢/٧١

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

نقد ابن الأثير لكلام ابن جنى :

ونقد ابن الأثير يتلخص فيما يلى :

أولا : أن ابن جنى قد جعل المعانى الثلاثة، وهى : الإتساع، والتشبيه، والتوكيد سببا لوجود المجاز ، بينما وجود واحد منها سببا لوجوده ، فإذا وجد التشبيه وحده كان مجازاً ، وإذا وجـــد الإتساع وحـــده كان مجازاً ! .

ثانيا : أنه ذكر التوكيد ، والتشبيه، (وكلاهما شيء واحد) على الوجه الذى ذكره ، لأنه لما شبهت الرحمة — وهى معنى لا يدرك بالبصر — بمكان يدخل، وهى صورة تدرك بالبصر ، دخل تحته التوكيد الذى هو إخبار عما لا يدرك بالحاسة بما قد يدرك بالحاسة .

ثالثاً : أنه قال : «وأما الإتساع » فهو : أنه زاد فى أسماء الجهات والمحال كذا وكذا» وهذا القول مضطرب شديد الإضطراب، لأنه ينبغى على قياسه أن يكون (جناح الذل) فى قوله تعالى : «واخفض لهما جناح الذل »(١) زيادة فى أسماء الطيور ، وذلك أنه زاد فى أسماء الطيور أسماً هو : الذل، وهكذا يجرى فى الشعر !

كقول أبى تمام :

لبست سواه أقواماً ، فكانوا
كما أغـــنى التيمم بالصعيد

فزاد فى أسماء اللباس أسماً هو الآدمى ، وهذا مما يضحك منه !

---

(١) سورة الإسراء ٢٤

الرد على ابن الأثير :

ولسنا مع ابن الأثير فى قوله : « إذا وجد التشبيه — وحده — كان مجازاً . لأن المتأخرين من البلاغيين ، قد عدوه فى دائرة الحقيقة ، لأن دلالته مطابقية(١) ، وإنما أدخلوه فى علم البيان لتوقف الإستعارة عليه .

كما أن ابن الأثير قد تجنى على ابن جنى ، فادعى أنه قال : أما الإتساع، فهو : أنه زاد فى أسماء الجهات والمحال كذا . وكذا » ، والحق أن عبارة ابن جنى هى : « كأنه زاد فى أسماء الجهات ، والمحال اسماً هو : الرحمة » ، ولكن ابن الأثير قد حذف حرف الكاف من (كأنه) ، ليتسنى له غرضه من نقد كلام ابن جنى ! ، ولهذا جاء الاضطراب الذى أدعاه ! ، فالاضطراب ناشىء من عدم أمانة ابن الأثير فى النقـــل ، وليس ناشئاً من عبارة ابن جنى !

وقد أسلفنا لك أن مثل تلك العبارة من ابن جنى كانت أصلا ، للمتأخرين فى أدعائهم دخول المشبه فى جنس المشبه به ، إذ قالوا : وإنما المراد ، أن المدعى بنى ادعاءه على أن الأسد — مثلا — جعل له بطريق التأول والمبالغة فردان :

متعارف : وهو الذى له الجراءة المتناهية ، والغاية فى القوة ، فى جثة ذى الأظفار ، والأنياب ، والشكل المخصوص .

غير المتعارف : وهو فرد آخر له تلك القوة والجراءة نفسها ، لكن فى جثة الآدمى وكأن اللفظ موضوع للقدر المشترك بينهما ، كالمتواطىء،

---

(١) حاشية الدسوقى (شروح التلخيص) ٣/٢٨٧

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فالأمر لا يعدو ، أن يكون مجرد ادعاء زيادة أسماء الجهات ، أو الطير ، أو اللباس ، لأنه قال : (كأنه زاد) ولم يقل : (أنه زاد) !

شيوع المجاز في اللغة العربية :

يذكر ابن جني أن أكثر اللغة إذا تأملته مجاز ، لا حقيقة ، فعامة الأفعال ، نحو : قام زيد ، وقعد عمرو ، وانطلق بشر ، وجاء الصيف وانهزم الشتاء :

وذلك لأن الفعل يفيد معنى الجنسية ، فقولك : قام زيد ، معناه : كان منه القيام ، أي هذا الجنس من الفعل ، ومعلوم أنه لم يكن منه جميع القيام لأنه جنس ، والجنس يطبق جميع الماضي ، وجميع الحاضر ، وجميع الآتي ، من الكائنات من كل من وجد منه القيام ، ولا يجتمع لإنسان واحد في وقت واحد القيام كله الداخل تحت الوهم ، ولهذا فإن : (قام زيد) مجاز لا حقيقة ، من وضع الكل موضع البعض .

والدليل على انتظام الفعل لجميع جنس القيام : أنك تعمله في جميع أجزائه ، فتقول ، قمت قومة ، وقمت قومتين ، ومائة قومة ، وقياماً حسناً فإعمالك إياه في جميع أجزائه دليل على أنه موضوع عندهم على صلاحه لتناول الجنس كله .

ولهذا قال الشاعر :

لعمري لقد أحببتك الحب كله ... وزدتك حباً ، لم يكن قبل يعرف

فاستغرق الحب كله ، واستوعبه .

وقال الآخر :

وقد يجمع الله الشتيتين بعد ما ... يظنان كل الظن أن لا تلاقيا !

فقوله : (كل الظن) يدل على ما ذهب إليه ابن جني .

وكذلك : قولك : (ضربت عمراً) مجاز — أيضا — من جهة التجوز في الفعل ، وهو أنك ربما تكون قد ضربت بعضه ، لا جميعه ، بأن تكون قد ضربت يده ، أو إصبعه ، أو ناحية من نواحي جسده ، ولهذا إذا احتاط الإنسان جاء ببدل البعض ، فقال : ضربت زيداً ، وجهه ، أو رأسه ، ومع ذلك يكون — أيضا — متجوزاً لأنه قد يقول : ضربت زيداً رأسه ، فيبدل للاحياط ، وهو إنما ضرب ناحية من رأسه ، لا رأسه كله ، ولهذا يحتاط بعضهم في نحو هذا بأن يقول : ضربت زيداً وجهه الأيمن ، أو ضربته أعلى رأسه الأسمق ، لأن أعلى الرأس قد تختلف أحواله فيكون بعضه أرفع من بعض !! على أن وقوع التوكيد في اللغة العربية ، أقوى دليل على شيوع المجاز فيها واشتماله عليها ، فأنت تقول : قطع الأمير اللص ويكون القطع له بأمره لا بيده ، فإذا قلت : قطع الأمير نفسه اللص ، رفعت المجاز من جهة الفعل ، وصرت إلى الحقيقة ، لكن يبقى عليك التجوز من مكان آخر ، وهو قولك : (اللص) لأنه لعله قطع يده ، أو رجله ، فإذا احتطت قلت ، قطع الأمير نفسه يد اللص ، أو رجله .

وكذلك تقول : جاء الجيش أجمع ، ولو لا أنه يحتمل أن يكون المجيء من بعضه ، لما كان لقولك (أجمع) معنى .

على أن المجاز إذا اكثر عندهم لحق بالحقيقة ، واستعمل استعمالها ومن تأكيد المجاز قولنا : قام زيد قياما ، وجلس عمرو جلوسا ، وذهب سعيد ذهابا ، لأن تلك الأمثلة من باب المجاز — كما سبق — ، ومع ذلك فالأفعال فيها مؤكدة بالمصدر .

فالمجاز شائع في اللغة العربية بدليل وجود التوكيد فيها ، وهو إذا ما شاع ، استعمل استعمال الحقيقة ، فأكد كما تؤكد الحقيقة .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

لزوم مالا يلزم

أورد ابن جنى هذا الفن من فنون القول فى باب عنوانه : (باب فى التطوع بما لا يلزم) ويمكن تقسيمه إلى قسمين :

القسم الأول : التطوع بما لا يلزم فى الشعر :

وهو — عنده — : أن يلتزم الشاعر مالا يجب عليه ، ليدل بذلك على غزره وسعة ماعنده(١)

ومن الأمثلة التى ساقها ، تجد أنه يتنوع أيضا ، إلى مايلى :

١ — التزام الشاعر بالحرف الذى قبل الروى :

وقد مثل ابن جنى لهذا النوع بما أنشده الأصمعى :

وحسد أوشلت من حظاظها
على أحامى الغيظ واكتظاظها .
حتى ترى الجواظ من فظاظها
مذلوليا بعد شذا أفظاظها .
وخطة لاروح فى كظاظها
أنشطت عنى عروقى شظاظها .
بعد احتكاء إربتى أشظاظها
بعزمة جلت غشا ألفاظها
بحك كرش الناب لافتظاظها

(١) الخصائص ٢ / ٢٣٤

معلقاً عليه بقوله : فالتزم فى جميعها ماتراه من الظاء الأولى ، مع كون الروى ظاء على عزة ذلك مفردا من الظاء الأولى ، فكيف به إذا انضم إليه ظاء قبله ؟! .

وقلما رأيت فى قوة الشاعر مثل هذا !

فهذا النوع — فى رأى ابن جنى — دليل على قدرة الشاعر على امتلاك ناصية اللغة وشاهد على غزارة مادته اللغوية !

٢ — التزام الشاعر حرفين قبل الروى :

ومثل له بما أنشده أبو على :

شلت يدا فارية فرتها
وفقئت عين التى أراتها
عنك شبوب ثم وفرتها
لو خافت النزع لأصغرتها .

فلزم التاء والراء ، وليست واحدة منهما بلازمة ، والقطعة هائية ، لكون ماقبل الهاء والساكر لا وصل له ، ويجوز مع هذه القوافى : ذرها ، ودعها(١)

٣ — التزام الشاعر تشديد حرف الروى :

ومنه مارواه ابن جنى لأبى العالية : من قوله :

إنى امرؤ أصفى الخليل الخلة
أمنعه ودى وأرعى إله
وأبغض الزيارة المملة
وأقطع المهامه المضلة

(١) الخصائص ٢ / ٢٤٦

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ليست بها لركبها تعلله
إلا نجاء الناجيات الجله
على هيل ، أو على هيله
ذات هياب جسرة شمله
ناجية فى الخرق مشمعلة
تنسل بعد العقب المكله
مثل انسياب العضب من ذى الخله
وكأشح رقيت منه صله
بالصفح عن هفوته والزله
حتى استللت صفنته وغله !

وذلك حيث التزم اللام المشددة فى جميع الأرجوزه .

٤ — التزام الشاعر تصغير القوافى :

ومثل لهذا النوع بما أنشده الأصمعى من مشطور السريع ، وهى رائية طويلة التزم قائلها تصغير قوافيها — فى أكثر الأمر — فى إلا القليل النزر ، وأولها :

عز على ليلى بذى سدير
سوء مبيتى ليلة الغمير
مقبضا نفسى فى طمير
تجمع القنفذ فى الجحير
تنتهض الرعدة فى ظهيرى
يهفو إلى الزور من صديرى
مثل هرير الهر ، للهرير
ظمآن فى ريح وفى مطير

وأزقر ؛ ليس بالقرير
من لدما ظهر إلى سحير
حتى بدت لى جبهة القمير
لأربع غبرن من شهير
ثم غدوت غرضا من فورى
وقطقط البلة فى شعير

وبعد أن يتم ابن جنى القصيدة كلها، يقول : أفلا ترى إلى قلة غير المصغر فى قوافيها؟ وهذا أنكر ما فيها، وأدله على قوة قائلها ، وأنه إنما لزم التصغير فى أكثرها سياطه وطبعاً ؛ لا تكلفاً وكرها .

والدليل على أن هذا الإلتزام من الشاعر إنما هو طبع لا تكلف — كما يرى ابن جنى — أنه لو كان منه تجشما وصنعة ، لتحامى غير المصغر ليتم غرضه ، ولا ينقض عليه ما أعتزمه(١) .

٥ — التزام الشاعر بلام التعريف فى آخر مصراع كل بيت :

ومن ذلك ما أنشده أبو بكر محمد بن على عن أبى إسحاق لعبيد ، من قوله :

ياخليلى أربعا واستخبرا الـ
منزل الدارس من أهل الخلال
مثل سحق البرد عفى بعدك الـ
قطر وتأويب الشمال
ولقد يغنى به جيرانك الـ
ممسكو منك بأسباب الوصال

(١) الخصائص ٢/٢٣٩

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ثم أودى ودهم إذ أزمعوا الـ
بين والأيام حال بعد حال
فانصرف عنهم بعنس كالوأى الـ
جأب ذى العانة أو شاة الرمال
نحن قدنا من أهاضيب الملا الـ
خيل فى الأرسال أمثال السعالى
شرباً يعسفن من مجهوله الـ
أرض وعثا من سهول أو رمال
فانتجعنا الحارث الأعرج فى
جحفل كالليل خطار العوالى

إلى أن أتم القصيدة كلها ، وقادها على أن آخر مصراع كل بيت منها منته إلى لام التعريف ، غير بيت واحد ، وهو قوله :

فانتجعنا الحارث الأعرج

فصار هذا البيت الذى نقض القصيدة أن تمضى على ترتيب واحد هو آخر ما فيها — على حد تعبير ابن جنى — وذلك لأنه دل على أن هذا الشاعر إنما تساند إلى ما فى طبعة ، ولم يتجشم إلا ما فى نهضته ووسعة ، من غير أغتصاب له ، واستكراه ألجأه إليه ، إذا لو كان ذلك على خلاف ما حددناه ، وأنه إنما صنع الشعر صنعا ، وقابله بها ترتيباً ووضعاً ، لكان قمناً ألا ينقض ذلك كله ببيت واحد يوهيه ويقدح فيه(١) وهذا واضح .

ومما ذكره ابن جنى غير تلك الأنواع التى يلتزم فيها الشاعر بما لا يلزمه : التزامه بحرف التأسيس فى القافية ، والتزامه بحركة ما قبل الروى ، والتزامه بأن تكون الكلمة التى بها القافية معربة إعراباً واحداً وهكذا .

(١) الخصائص ٢/٢٥٨

ثم يذكر أن أكثر هذه الإلتزامات إنما خصت بالشعر ، لأن الشاعر يحظر على نفسه ما قبيحه الصنعة له إدلالا ، وتعجرفاً . واقتداراً ، وتعالياً وهو كثير(١) .

القسم الثانى : التطوع بما لا يلزم فى غير الشعر :

وهو — أيضا — يتنوع إلى الأنواع التالية :

١ — التطوع بما لا يلزم فى إجابة السؤال : وذلك كقولك — فى جواب من سألك — : أى شىء عندك؟ زيد ، أو عمرو ، أو محمد الكريم ، أو على العاقل ، لأن جوابه الذى لا يقتضى السؤال غيره ، هو أن يجيبه بنكرة فى غاية الشيوع ، فيقول : جسم ، فإذا تطوعت زيادة على هذا ، قلت : حيوان ، فإذا تطوع شيئاً آخر ، قال : إنسان ، فإذا تطوع بشىء آخر ، قال : رجل ، فإذا زاد فى التطوع شيئاً آخر ، قال : رجل عاقل ، أو نحو ذلك ، فإذا تطوع شيئاً آخر ، قال : زيد أو عمرو ، أو نحو ذلك .

فهذا كله تطوع بما لا يوجبه سؤال هذا السائل(٢) .

(١) الخصائص ٢/ ٢٦٤

(٢) الخصائص ٢/ ٢٦٥٢

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

٢ — التطوع المشام للتوكيد :

ومنه قوله الله تعالى :«وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين»(١) .

وقوله تعالى : «ومناة الثالثة الأخرى »(٢)

وقولهم : مضى أمس الدابر ، وأمس المدبر ؛ وأنشد الأصمعى :

وأبى الذى ترك الملوك وجمعهم بصهاب هامدة ؛ كأمس الدابر

وقال عمران بن حطان(٣) :

خبلت غزالة قلبه بفوارس تركت منازله كأمس الدابر

على أن ابن جنى قد أعاد هذه الأمثلة فى موضع آخر من كتابه على أنها من التأكيد بالصفة ؛ وذلك أنه قد عقد باباً « فى الاحتياط » بين فيه أن العرب إذا أرادت المعنى مكنته ، وأحتاطت له ؛ وأن من ذلك الاحتياط : التوكيد ، وأنه على ضربين :

أحدهما : تكرير الأول بلفظه ؛ نحو : قام زيد قام زيد .

والثانى : تكرير الأول بمعناه ؛ وأنه على ضربين : أحدهما للإحاطة والعموم والآخر : للتثبيت والتمكين ؛ فالأول : كقولنا : قام القوم كلهم ، والثانى نحو قولك : قام زيد نفسه .

ثم قال : وقد يؤكد بالصفة ، كما تؤكد هى ؛ نحو قولهم : أمس الدابر ،

(١) النحل ٥١
(٢) النجم ٣٠
(٣) الكامل ٢/ ١٥٤ والأغانى (بولاق) ٦/ ١٥٤

وأمس المدبر وقول الله — عز إسمه — (إلهين إثنين) ، وقوله تعالى : (ومناة الثالثة الأخرى) وقوله سبحانه : (فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة)(١) .

٣ — التطوع بالحال المؤكدة :

ومنها قول الله تعالى : « ثم وليتم مدبرين »

وقول ابن دارة :

أنا ابن دارة معروفاً بها نسبى
وهل بدارة يا للناس من عار ؟ !

وأما قول الله تعالى : « ولا طائر يطير بجناحيه »(٢) فقد جوز فيه ابن جنى أمرين :

أولهما : أن يكون مفيداً معنى جديداً ، وذلك لأنه ربما يفهم الطيران فى الآية الكريمة على أنه مجاز عن السرعة ، لأنه قد جاء مجازاً على ألسنة الشعراء ، ومن ذلك بيت الكتاب :

وطرت بمنصلى فى يعملات
دوامى الأيد يخبطن السريحا

وقال العجاج :

طرنا إلى كل طوال أعوجا

وقال قريط بن أنيف العنبرى :

(١) الخصائص ٣/ ١٠٥
(٢) الأنعام ٣٨

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم
طاروا إليه زرافات ووحداناً

فيكون قوله تعالى : (يطير بجناحيه) على هذا مفيداً ، أى ليس الغرض تشبيهه بالطائر ذى الجناحين ، بل هو الطائر بجناحيه ألبته وكذلك قوله — عز وجل — « خر عليهم السقف من فوقهم » .

فقد يكون قوله تعالى : (من فوقهم) مفيداً ، أى معنى جديداً ، وذلك أنه قد يستعمل فى الأفعال الشاقة المستثقلة ، على قول من يقول : مرنا عشراً ، وبقيت علينا ليلتان وقد حفظت القرآن وبقيت على منه سورتان، وقد صمنا عشرين من الشهر وبقيت علينا عشر ، وكذلك يقال فى الإعتداد على الإنسان بذنبوبه ، وقبيح أفعاله : قد أخرب على ضيعتى ، وموت على عواملى ، وأبطل على إنتفاعى فعلى هذا لو قيل : خر عليهم السقف ، ولم يقل : من فوقهم ،لجاز أن يظن به أنه كقولك : قد خربت عليهم ديارهم ، وقد أهلكت عليهم مواشيهم وغلاتهم ، وقد تلفت عليهم تجارتهم ، فإذا قال : (من فوقهم) زال ذلك المعنى المحتمل ، وصار معناه : أنه سقط وهم من تحته ، وهذا معنى غير الأول(١) .

إفادة البلاغيين من هذا الباب :

هذا الباب أشار إليه — قبل ابن جنى — عبد الله بن المعتز ، المتوفى سنة ٢٩٦ هـ ، وسماه إعنات الشاعر نفسه ، وجعله الثانى عشر من محسنات الكلام فى كتاب البديع ؛ وهو عنده : أن لا يكتفى الشاعر بروى واحد ؛

(١) الخصائص ٢/٢٧١

بل يضيف إليه التزام الحرف السابق له(١) .

ولكن ابن جنى قد وسع دائرته — كما رأيت — فشمل الشعر والنثر جميعاً .

وألم ابن حيدر البغدادى المتوفى سنة ٥١٧ هـ بتعريف ابن جنى الذى أسلفناه ؛ وهو :(أن يلتزم الشاعر ما لا يجب عليه ليدل بذلك على غزره وسعة ما عنده) فعرفه ابن حيدر بقوله: (أن يلتزم الشاعر فى القوافى ما لا يلزمه إبانة عن اقتداره ، وتوسعه ، وفسحة مجال فكره)(٢) .

أما أبو العلاء المعرى المتوفى سنة ٤٩٩ هـ ؛ فقد ألف كتابا أسماه : « لزوم ما لا يلزم » وقال فى خطبته : وجمعت هذا كله فى كتاب لقبته (لزوم ما لا يلزم) ؛ ومعنى هذا : أن القافية تلزم لها لوازم لا يفتقر إليها حشو البيت(٣) .

وقد جعله ابن الأثير شاملا للنثر والشعر جميعا ؛ وأخذ من ابن جنى التزام الشاعر بتصغير لقوافى ، فجعله ملحقاً بلزوم ما لا يلزم ،قائلا ،وأعلم أنه إذا صغرت الكلمة الأخيره من الشعر أو من فواصل الكلام المنثور، فإن كل ذلك ملحق باللزوم ، ويكون التصغير عوضا عن تساوى الحروف التى قبل روى الأبيات الشعرية ، والحروف التى قبل الفاصلة من النثر ،

(١) البديع ، لعبد الله بن المعتز
(٢) قانون البلاغة ١٣٣
(٣) لزوم ما لا يلزم ١/٣

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ثم أتى بنفس الأبيات التى مثل بها ابن جنى للقوافى المصمتة ، وهى قول بعضهم(١) :

هز على ليلى بذى سدير ... سوء مبيتى ليلة الغمير
مقبضاً نفسى فى طمير ... تقتهز الرعدة فى ظهيرى
يهفو إلى الزور من صد يرى ... ظمآن فى ريح وفى مطير
وازر قفر ليس بالغرير ... من لد ما ظهر إلى سحير
حتى بدت لى جبهة القمير ... لأربع خلون من شهير

ثم نقل ابن الأثير، من هذا الباب ــ أيضا ــ ما أسماه ابن جنى: التطوع المشام للتوكيد ، أو ما أسماه : التأكيد بالصفة ، والتطوع بالحال المؤكدة وأمثلتهما ، وهى: قوله تعالى :«نفخ عليهم السقف من فوقهم» وقوله تعالى: «فإذا انفخ فى الصورة نفخة واحدة» وقوله تعالى: «أفرأيتم اللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى» ، وجعل ذلك كله قسماً من أقسام الإطناب بالتأكيد وذلك لأنه رأى ابن جنى يجعل تلك الأمثلة من التأكيد بالصفة ، حيث جعلها من باب احتياط العرب المعانى بتأكيدها، ولكن ابن الأثير لم يشر إلى صاحب الفضل فى هذا وهو ابن جنى !

بل إن ابن الأثير عندما قرأ فى خصائص ابن جنى : أن مثل قوله تعالى : « نفخ عليهم السقف من فوقهم » ، يفيد قوله فيه (من فوقهم) فائدة ، قال : وهذه المواضع وأمثالها، ترد فى القرآن الكريم ، ويتوهم بعض الناس أنها ترد لغير فائدة اقتضتها ، وليس الأمر كذلك ، فإن

(١) المثل السائر ١ / ٣٧٥

هذه الأسرار البلاغية لا يتنبه لها إلا العارفون بها ، وهكذا يرد منها فى كلام العرب(١) .

وهكذا تجد أن ابن الأثير قد نقل شطراً من « التطوع بما لا يلزم » عند ابن جنى وجعله فى لزوم ما لا يلزم ، ونقل شطراً آخر منه ، وجعله قسما من أقسام الإطناب بالتأكيد ، ولم يشر إلى المصدر الذى نقل عنه !

(١) المثل السائر ٢ / ٢٤٩

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

مسائل متفرقة

١ — القصر فى تقديم النكرة على الفعل

وقد جاءت هذه المسألة البلاغية ، التى تضمنت القصر عن طريق تقديم النكرة على الفعل فى باب إصلاح اللفظ ؛ إجابة على اعتراض افترضه ابن جنى يفيد أنه لا يبتدأ بالنكرة ؛ وقد حكى عن العرب : (أمت فى حجر لا فيك) ، وقولهم : (شراهر ذا ناب) ، وقولهم : (سلام عليك) ، قال الله سبحانه وتعالى : (سلام عليك سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفيا) وقال : (ويل للمطففين) ونحو ذلك ، والمبتدأ فى جميع هذا نكرة مقدمة .

وأجاب ابن جنى بان قوله : (سلام عليك) و (ويل له) و (أمت فى حجر لا فيك) فإنه إنما جاز ، لأنه ليس فى المعنى خبراً ، وإنما هو دعاء ومسألة ؛ أى ليسلم الله عليك ، وليلزم الويل ، وليكن الأمت فى الحجارة لا فيك ، والأمت هو : الانخفاض والارتفاع ، والاختلاف ، قال الله عز وجل : « لا ترى فيها عوجا ولا أمتا » أى لا اختلافاً ، ومعناه . أبقاك الله بعد فناء الحجارة .

وأما قولهم (شراهر ذا ناب) فإنه إنما جاز الابتداء فيه بالنكرة ، لأن الكلام فيه عائد إلى معنى النفى ، أى ما أهر ذا ناب إلا شر ، وإنما جاء الكلام كذلك ، لأن الخبرية عليه أقوى ، لأنك لو قلت : أهر ذا ناب شر كنت قد أخبرت بخبر غير مؤكد ولكنك لو قلت : ما أهر ذا ناب إلا شر ، كان ذلك أوكد .

والدليل على هذا : أن قولك : ماقام إلا زيد أوكد من قولك : قام زيد . وإنما أحتيج إلى التوكيد فى هذا الموضع ، لأنه أمرمهم ، لأن قائل

هذا القول سمع هرير كلب ، فخاف أن يكون لطارق شر ، فقيل ، شر أهر ذا ناب أى : ما أهر ذا ناب إلا شر ، تعظيما عنـد نفسه أو عند مستمعه(١) .

وقد فهم ابن جنى من تقديمهم النكرة على الفعل فى هذا المثال : أنهم يريدون بذلك تأكيد الخبر ، لأن عدم تقديمها ، لا يفيد تأكيداً ، لأن قولك ما قام إلا زيد ، آكد من قام زيد ، وقد جاء التوكيد من طريق القصر ، فتقديم النكرة على الفعل هنا إنما هى لأفادة القصر .

وقد بين ابن جنى — أيضا — أن الحال هنا تقضى التأكيد ، لأن الأمر مهم ، وقد راعى حال المخاطب ، وحال المتكلم جميعا ، عندما قال : « فقال : شر أهر ذا ناب ، أى : ما أهر ذا ناب إلا شر ، تعظيما عند نفسه أو عند مستمعه .

فمطابقة الكلام لمقتضى الحال يجب أن ينظر فيها إلى حال المخاطب ، والمتكلم — أيضا — عند ابن جنى ، خلافا لما عليه المتأخرون الذين يقسمون الخبر باعتبار حال المخاطب ، إلى ابتدائى ، وطلبى ، وإنكارى(٢) ولم يراعوا حال المتكلم .

إفادة عبد القاهر من تلك المسألة:

وقد أفاد الإمام عبد القاهر من تلك المسألة ؛ حيث أراد أن يثبت أن تقديم النكرة على الفعل يفيد الوحدة ، أو الجنس ، وهو يحتملهما معاً ، إلا أنك إذا قصدت أحدهما دون الآخر ، صار هذا الآخر — بأن لم يدخل فى القصد — كأنه لم يدخل فى دلالة اللفظ فإذا قلت : (رجل جانى) لم يصلح حتى تريد أن تعلمه أن الذى جاءك رجل لا امرأة ويكون كلامك مع من

(١) الخصائص ١/٣١٩ (٢) الإيضاح ١٢

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قد عرف أن قد أتاك آت ، فإن لم ترد ذاك كان الواجب أن تقول ، جاءنى رجل ، فتقدم الفعل .

وقولهم (شر أهر ذاناب) إنما قدم فيه (شر) ، لأن المراد أن يعلم أن الذى أهر ذا الناب من جنس الشر ، لا من جنس الخير فجرى مجرى أن تقول : رجل جاءنى ، تريد أنه رجل لا امرأة .

ثم يقول عبد القاهر — وهو يعنى ابن جنى — : وقول العلماء : إنه إنما يصلح لأنه بمعنى : (ما أهر ذا ناب إلا شر) بيان لذلك ألا ترى أنك لا تقول : ما أتانى إلا رجل إلا حيث يتوهم السامع أنه قد أتتك امرأة ؟!

وذلك لأن الخبر بنقض النفى يكون حيث يراد أن يقصر الفعل على شىء ، وينفى عما عداه فإذا قلت : ما جاءنى إلا زيد كان المعنى انك قد قصرت المجىء على زيد ، ونفيته عن كل من عداه ، وإنما يتصور قصر الفعل على معلوم ، ومتى لم يرد بالنكره الجنس لم يقف منها السامع على معلوم ، حتى يزعم أنى أقصر له الفعل عليه ، وأخبره ، وأنه كان منه دون غيره .

فتقدم النكرة على الفعل فى قولهم (شر اهر ذا ناب) يفيد قصر الفعل على جنس الشر .

فالنكرة إذن على أصلها ، من كونها لواحد من الجنس ، إلا أن القصد منك لم يقع إلى كونه واحداً فى قولك : أرجل أتاك أم امرأة ؟ وإنما وقع الى كونه من جنس الرجال ، وعكس هذا اذا قلت أرجل أتاك أم رجلان؟ كان القصد منك ، الى كونه واحداً ، دون كونه رجلا(١) .

فابن جنى قد اكتشف من قولهم : (شر اهر ذناب) أنهم انما قالوا ذلك لإصلاح اللفظ ، ليفيد التأكيد ، عن طريق القصر ، لأن أصل اللفظ هو : (أهر ذا ناب شر) ، فقدموا النكرة على الفعل ، فأفاد التركيب معنى

(١) دلائل الإعجاز ٩٥

(ما أهر ذا ناب الا شر) ، وبهذا عرف ابن جنى أن ما فى العبارة انما هو تأكيد بطريق القصر لأن الحال يقتضى التأكيد ، وقد راعى المتكلم حال نفسه ، أو حال المخاطب .

ولكن عبد القاهر كان أبعد نظراً من ابن جنى فى هذه المسألة ، فهو لم يقف على إفادة تقديم النكرة على الفعل القصر . وإنما رأى أن مثل هذا التقديم مفيد للواحد من الجنس ، فإذا قلت رجل جاءنى أى لا امرأة ، كان قصدك إلى إفادته الجنس وإذا قلت :رجل جاءنى أى لا رجلان ، كان قصدك إلى إفادته الوحدة ، فالقصر فى قولهم : (شر أهر ذا ناب) أفاد قصر الفعل على جنس الشر ، أى إن الذى أهر ذا ناب إنما هو من جنس الشر .

٢ — الكناية بلفظ (مثل)

وهذه المسألة البلاغية قد عرض لها ابن جنى من خلال رده على من يعتقدون زيادة (مثل) فى نحو قولنا : (مثلى لا يأتى القبيح) و (مثلك لا يخفى عليه الجميل) ، أى : أنا كذلك ، وأنت كذلك ، وعليه قوله :

مثلى لا يحسن قولا فمنع

أى : أنا لا أحسن ذاك .

وابن جنى لا ينكر أن يكون المعنى هو ماقدروه ، وإنه لصحيح ؛ ولكن تأويله غير الذى ذكروه من زيادة مثل ؛ وإنما تأويله : أنا من جماعة لا يرون القبيح ، وإنما جعله من جماعة هذه حالها ، ليكون أثبت للأمر ، إذ كان له فيه أشباه وأضراب ؛ ولو انفرد هو به لكان غير مأمون انتقاله منه ، وتراجعه عنه ؛ فإذا كان له فيه نظراء كان جديراً بأن يثبت عليه وترسو قدمه فيه .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وعليه قول الشاعر :(١)

ومثل لاتنبو عليك مضاربه

فعلى رأى القائلين بزيادة (مثل) لايكون فى العبارات السابقة كناية ، ولكن فهم ابن جنى لطبيعة هذا الأسلوب ، قد اطلعنا على مافيه من كناية لطيفة إذ جعله من قوم لايأتون القبيح ليكون أثبت للأمر الذى يريد وصفه به ؛ وهو أنه لايأتى القبيح ؛ فله فى هذا الأمر أشباه وأضراب ؛ فليس بدعا فى البعد عن القبيح ؛ لأنها طبيعة قوم نشأ بينهم ، وسار على هديهم .

إفادة البلاغيين من هذه المسألة :

أفاد عبد القاهر من هذه المسألة فى : مايرى تقديم الاسم فيه كاللازم ، ولكنه لم يغفل عما فيه من كناية ، فقد بين طريق الكناية فيه ؛ مهتديا بطريقة ابن جنى ، وهى بيان الصفة التى يراد إثباتها مصحوبة بالدليل على ثبوتها لمن يراد اثباتها له ؛ فبين أن مايرى تقديم الإسم فيه كاللازم (مثل) و (غير) فى نحو قول أبى الطيب المتنبى :

مثلك يثنى المزن عن صوبه
ويسترد الدمع عن غربه

وقول الناس : (مثلك رعى الحق والحرمة) وكقول الذى قال له الحجاج : لأحملنك على الأدهم ، يريد القيد ، فقال على سبيل المغالطة : ومثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب ، وماأشبه ذلك مما لايقصد فيه بمثل إلى إنسان سوى الذى أضيف إليه ولكنهم يعنون أن من كان مثله فى الحال والصفة ، كان من مقتضى القياس ، وموجب العرف والعادة ، أن يفعل ماذكر ، أو لا يفعل .

(١) الخصائص ٣ / ٣٠

ولهذا قال أبو الطيب بعد هذا البيت :

ولم أقل : مثلك أعنى به سواك ؛ يافرداً بلا مشبه

فأبو الطيب لايعنى بمثل غير الممدوح ، وإنما أراده هو ، على طريق الكناية وقد طبق عبد القاهر هذا على (غير) ، إذا سلك بها هذا المسلك فقيل : غيرى يفعل ذاك — على معنى أنى لاأفعله ، لا أن يومىء بغير إلى إنسان فيخبر عنه بأنه يفعل ذلك :

ومثله قول المتنبى :

غيرى بأكثر هذا الناس ينخدع

لأنه لم يرد أن يعرض بواحد كان هناك ، فيصفه بأنه مضعوف ، يغر ويخدع وإنما أراد : إنى لست ممن ينخدع ويغتر .

وكذلك قول أبى تمام :

وغيرى يأكل المعروف سحتا وتشحب عنده بعض الأيادى

فهو لم يعرض — مثلا — بشاعر سواه ، فيزعم أن الذى قرف به عند الممدوح ، من أنه هجاه ، كان ذلك من الشاعر ، لا منه ، فليس إلا أنه نفى عن نفسه أن يكون ممن يكفر النعمة ويلؤم .

فاستعمال (مثل) و (غير) — إذا جاءتا على هذا السبيل — شىء مركوز فى الطباع ، وجار فى عادة كل قوم(١)

وهكذا تجد أن عبد القاهر قد أفاد من تلك المسألة أن (مثل) إذا لم يرد بها غير ما أضيفت إليه ، تقدم أبدا ، وقاس (غير) على مثل ، فأعطاها حكمها فى التقديم ، لأنها تأتى على طريقتها فى الكناية

(١) دلائل الإعجاز ٩٣

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فلم يكن مقصد عبد القاهر — هنا — أن يتحدث عن الكناية — وإن جاء ذكرها تبعاً — ولكن ضياء الدين بن الأثير ، قد عثر على ضالته — فى الكناية — عندما قرأ كلام ابن جنى عن (مثل) ، فنقل ماقاله ، ولكن يتصرف فى العبارة عنه ولم يشر إلى هذا النقل ، فقال(١) : ومن لطيف هذا الموضع وحسنه : مايأتى بلفظة مثل : كقول الرجل إذا نفى عن نفسه القبيح : (مثلى لايفعل هذا) ، أى أنا لا أفعله ، فنفى ذلك عن مثله ، ويريد نفيه عن نفسه ، لأنه إذا نفاه عن يماثله ، ويشبهه ، فقد نفاه عن نفسه لامحالة ، إذ هو ينفى ذلك عنه أجدر وكذلك يقال : « مثلك إذا سئل أعطى » أى أنت إذا سئلت أعطيت ؛ وسبب ورود هذه اللفظة فى هذا الموضع : أنه لم يجعله من جماعة هذه أوصافهم ، وتثبيتاً للأمر . وتوكيداً ؛ ولو كان فيه وحده لقلق منه موضعه ، ولم يرس فيه قدمه » .

ولا يخفى عليك ما بين تلك العبارة التى أثبتناها لابن الأثير . وبين عبارة ابن جنى : « وإنما جعله من جماعة هذه حالها ، ليكون أثبت للأمر ، إذ كان له فيه أشياه وأضراب ، ولو انفرد هو به لكان غير مأمون انتقاله منه ، وتراجعه عنه ، فإذا كان له فيه نظراء كان حرى أن يثبت عليه ، وترسو قدمه فيه »(٢) ولكن ابن الأثير لم يشر هنا إلى ماقاله ابن جنى !

ثم أورد ابن الأثير ماجاء منها فى القرآن الكريم ، وهو قول الله تعالى : « ليس كمثله شىء ، وهو السميع البصير »(٣) ، مبيناً أن الفرق بين قوله : ليس كمثله شىء وبين قوله : ليس كالله شىء هو ما أشار إليه — من أنه إذا نفى الشىء عن مثله فقد نفاه عنه لامحالة — وإن كان الله سبحانه وتعالى ، لا مثل له حتى يكون لمثله مثل . وإنما ذكر ذلك — على حد تعبيره — على طريق المجاز ، قصداً للمبالغة .

(١) المثل السائر ٣/٦١ (٢) الخصائص ٣/٣١
(٣) الشورى ١١

وأنت ترى أن ابن الأثير هنا قد عبر بالمجاز عن الكناية ، لأنه يتابع ابن رشيق فى عدكل من التشبيه والكناية فى المجاز(١) .

وقد نقل الخطيب ماقاله عبد القاهر عن مثل وغير نقلا يكاد يكون حرفياً ، ولكنه أشار إلى ذلك فى مقدمة كتابه الإيضاح بقوله وعمدت إلى ما خلا عنه المختصر مما تضمنه مفتاح العلوم ، وإلى ما خلا عنه المفتاح من كلام الشيخ الإمام عبد القاهر الجرجانى — رحمه الله تعالى — فى كتابيه : « دلائل الإعجاز » ، وأسرار البلاغة » ، وإلى ما تيسر النظر فيه من كلام غيرهما(٢) .

٣ — من صور الالتفات : الالتفات من الخطاب إلى الغيبة :

وقد جاءت هذه الصورة على لسان ابن جنى ، فى باب خلع الأدلة ، وهو يعنى بالأدلة : أعلام المعانى فى العربية ، فالهمزة دليل الاستفهام . و (إن) دليل الشرط وهكذا ، ويراد بالمعانى : المعانى التى تحدث فى الكلام من خبر ، واستخبار ، ونحو ذلك .

وقد اتصل بما ذكره فى هذا الباب موقف طريف ، وهو : أن أصغر الناس قدراً قد يخاطب أكبر الملوك محلا بالكاف من غير احتشام منه ، ولا إنكار عليه ، وذلك نحو قول التابع الصغير للسيد الخطير : قد خاطبت ذلك الرجل ، واشتريت تينك الفرسين ، ونظرت إلى ذينك الغلامين ، فيخاطب الصاحب الأكبر ، بالكاف ، وليس الكلام شعراً ، فتحتمل له جرأة الخطاب فيه ، كقوله : لقينابك الأسد ، وسألنا منك البحر ، وأنت السيد القادر ، ونحو ذلك .

ويبين ابن جنى السر فى جواز ذلك عنده بأنه إنما لم تخاطب الملوك

(١) العمدة ١/٢٦٨ (٢) الإيضاح ٣

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

بأسمائها إعظاماً لها ، إذ كان الاسم دليل المعنى ، وجارياً فى أكثر الاستعمال مجراه حتى دعا ذلك قوماً إلى أن زعموا ، أن الاسم هو المسمى ، فلما أرادوا إعظام الملوك وإكبارهم تجافوا ، وتحاشوا ، عن ابتذال أسمائهم التى هى شواهدهم ، وأدلة عليهم ، إلى الكناية بلفظ الغيبة . فقالوا : (إن رأى الملك — أدام الله علوه —) و (نسأله — حرس الله ملكه —) ونحو ذلك ، وتحاموا أن يقولوا : (إن رأيت) و (نحن نسألك) .»

ولكن لما خلعت عن هذه الكاف دلالة الاسمية ، وجردت للخطاب ألبتة جاز استعمالها ، لأنها ليست باسم ، فيكون فى اللفظ به ابتذال له ، فلما خلصت هذه الكاف خطابا ، ألبتة ، وعريت عن معنى الإسمية استعملت فى خطاب الملوك(٣) .

إفادة ابن الأثير من هذه المسألة :

لم يسلم ابن جنى من نقد ابن الأثير فى هذه المسألة ، وإن كان ابن الأثير لم يصرح باسم ابن جنى — هنا — لضعف نقده . وتراجعه عنه . وحتى لا يقال عنه إنه نقل عن ابن جنى فكرة مخاطبة الملوك بما يليق بهم !

يقول ابن الأثير : واعلم أن للمدح ألفاظاً تخصه ، وللذم ألفاظاً تخصه ، وقد تعمق قوم فى ذلك ، حتى قالوا : من الأدب ألا تخاطب الملوك ومن يقاربهم بكاف الخطاب ، وهذا غلط بارد ، فإن الله الذى هو ملك الملوك قد خوطب بالكاف فى أول كتابه العزيز ، فقيل : إياك نعبد ، وإياك نستعين ، وقد ورد أمثال هذا فى مواضع من القرآن غير محصورة . ثم يبدأ ابن الأثير فى التراجع عن نقده هذا .

فيقول : إلا أنى قد راجعت نظرى فى ذلك ، فرأيت الناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم ، والعوائد لا حكم لهـــا ، ولا شك أن العـادة

(١) الخصائص ٢/١٨٨

قد أوجبت للناس مثل هذا التعمق فى ترك الخطاب بالكاف ، لكنى تأملت أدب الشعراء والكتاب فى هذا الموضع ، فوجدت الخطاب لا يعاب فى الشعر ويعاب فى الكتابة ، إذا كان المخاطب دون المخاطب درجة ، وأما إن كان فوقه ، فلا عيب فى خطابه إياه بالكاف(١) .

الرد على ابن الأثير:

والرد على ابن الأثير — هنا — من وجوه :

الأول : أن ابن الأثير — هنا قـــد ناقض نفسه ، لأنه قد وصف الرأى القائل بأنه من الأدب ألا تخاطب الملوك ومن يقاربهم بكاف الخطاب ، بأنه غلط بارد ، ثم تراجع عن هذا الرأى بقوله إلا أنى قد راجعت نظرى فى ذلك ...» .

الثانى : أن ابن جنى لم يقـــل عبارة ابن الأثير ، وهى : من الأدب ألا تخاطب الملوك ومن يقاربهم بكاف الخطاب» : وإنما يصف مرحلة من مراحل تطور التعبير ، وهى المرحلة ، التى كانت فيها الـكاف تحمل معنى الأسمية واستعيض عنها بالإلتفات إلى الغيبة فى مخاطبة الملوك بقولهم : (إن رأى الملك أدام الله علوه) و(نسأله حرس الله ملكه).

فلما خلعت عن هذه الكاف دلالة الأسمية ، وجردت للخطاب جاز استعمالها ، لأنها ليست باسم فيكون فى اللفظ به ابتذال ، فلما خلصت هذه الكاف خطاباً ألبتة وعريت عن معنى الإسمية استعملت فى خطاب الملوك وصح أن يقال فى مدحهم للملك: لقينا بك الأسد ، وسألنا منك البحر ،

(١) المثل السائر ٣/١٨٧

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وأنت السيد القادر ، ونحو ذلك ، وأما(أنت) فإن معها نفسها الإسم، وهو (أن)من(أنت) ، فالاسم على كل حال حاضر .

الثالث : أن عبارة ابن الأثير : « وقد تعمق قوم فى ذلك حتى قالوا : من الأدب ألا تخاطب الملوك ومن يقاربهم بكاف الخطاب» إنما هو ترجمة أمينة لقول ابن جنى : حتى دعـــا ذلك قوماً إلى أن زعموا أن الاسم هو المسمى ، فلما أرادوا إعظام الملوك وإكبارهم تحاشوا وتجانفوا عن ابتذال أسمائهم التى هى شواهدهم وأدلة عليهم إلى الكناية بلفظ الغيبة ، ومع هذا فإن ابن الأثير لم يشر إلى ابن جنى هنا .

٤ — التعبير عن المستقبل بلفظ الماضى وعكسه:

هذا الموضوع، قد تحدث عنه ابن جنى بعمق(١) وربما كان حديثه — هنا — المنبع الذى عرف منه البلاغيون سر التعبير عن المستقبل بلفظ الماضى ، وعن الماضى بلفظ المستقبل ، وهو أن التعبير عن المستقبل بلفظ الماضى ، يفيد تحقق الوقوع ، وأن التعبير عن الماضى بلفظ المستقبل ، إنما هو لاستحضار الصورة الماضية .

وبعد أن بين ابن جنى — فى باب المستحيل ، وصحة قياس الفروع على فساد الأصول — أنه من المحال،أن تنقض أول كلامك بآخره ، وذلك كقولك : قمت غداً،وسأقوم أمس ونحوهذا ، ثم افترض أن معترضاً قال : فقد تقول : (إن قمت غداً قمت معك) ، وتقول:(لم أقم أمس)، وتقول : (أعزك الله ، وأطال بقاءك) فتأتى بلفظ الماضى ومعناه الإستقبال، وقال: (رجل من بنى سلول) :

(١) الخصائص ٣/١٠٥

ولقد أمر على اللئيم يسبنى
فمضيت ثمت قلت : لا يعنينى

أى : ولقد مررت وقال (الطرماح) :

وإنى لآتيـــكم تشكر ما مضى
من الأمر ، واستيجاب ما كان فى غد

أى : ما يكون ، وقال :

أوديت إن لم تحب حبو المحتنك

أى : أودى — وأمثاله كثيرة(١) :

ويجيب ابن جنى بأن هذه المواضع المتجوزة ، وما كان نحوها قد ورد أكثرها فيما حكاه عن أبى على الفارسى ، الذى كان قد سأل أبا بكر محمد بن مقسم(٢) عنه ، فى نحو هذا ، فقال أبو بكر : كان حكم الأفعال : أن تأتى كلها بلفظ واحد،لأنها لمعنى واحد ،غير أنه لما كان الغرض فى صناعتها ، أن تفيد أزمنتها ، خولف بين مثلها ، ليكون ذلك دليلا على المراد فيها ، قال : فإن أمن اللبس فيهـــا جاز أن يقع بعضها موقع بعض، وذلك مع حرف الشرط ؛ نحو :(إن قمت جلست)، لأن الشرط ، معلوم أنه لا يصح إلا مع الإستقبال ، وكذلك (لم يقم أمس)(٣) وجب لدخول لم ما لولا

(١) الخصائص ٣/٣٣١
(٢) الخصائص ١/٣٨
(٣) الخصائص ٣/٣٣١

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

هى لم يجز ، . . ولأن المضارع أسبق فى الرتبة من من الماضى ؛ فإذا فى الأصل كان الفرع أشد انتفاء .

وكذلك — أيضاً — حديث الشرط . فى نحو إن قمت ؛ جئت فيه بلفظ الماضى ، الواجب تحقيقاً للأمر ، وتثبيتا له ، أى : إن هذا وعد موفى به لامحالة كما أن الماضى واجب ثابت — لامحالة .

ونحو من ذلك : لفظ الدعاء، ومجيئه على صورة الماضى الواقع ، نحو: (أيدك الله) و(حرسك الله)، إنما كان تحقيقاً له ، وتفؤلا بوقوعه أن هذا ثابت بإذن الله، وواقع غير ذى شك ؛ وعلى هذا يقول السامع للدعاء — إذا كان مريداً لمعناه — وقع إن شاء الله ، ووجب — لامحالة — أن يقع ويجب .

فالغرض البلاغى من وضع الماضى موضع المضارع ، هو : إرادة تحقق الوقوع والتأكيد على أنه واقع لامحالة ، لأنه أراد الاحتياط للمعنى، فجاء بمعنى المضارع المشكوك فى وقوعه بلفظ الماضى المقطوع بكونه ، حتى كان هذا : قد وقع ، وأستقر لا أنه متوقع مترقب(١) !

يقول ابن جنى بعد هذا الكلام ، وهذا تفسير أبى على عن أبى بكر ؛ وما أحسنه !

ولله ابن جنى ، ما أروعه ، وهو يقدم لنا الفكرة رائعة ، منسوبة إلى أصحابها الحقيقيين !

وأما وضع المضارع موضع الماضى ، فقد ذكر ابن جنى أن الغرض

(١) الخصائص ٣/٣٣١

منه إنما هو حكاية الحال الماضية ، والحال لفظها — أبداً — بالمضارع ؛ نحو قولك : زيد يتحدث ، ويقرأ أى : هو فى حال تحدث وقراءة .

وعلى نحو من حكاية الحال فى نحو هذا ؛ قولك: (كان زيد سيقوم أمس) ، أى : كان متوقعاً منه القيام فيما مضى(١) .

وقد وضع ابن الأثير هذا النوع من أساليب الكلام فى القسم الثالث من الالتفات — فى رأيه — وسماه : الإخبار عن الفعل الماضى بالمستقبل ، وعن المستقبل ، بالماضى(٢) ، وتابعه العلوى صاحب الطراز .

ولم يوافقه بقية المتأخرين على هذا الرأى ، فوضعوه ، فى باب الاستعارة التبعية فى الفعل. حيث تستعار صيغة الماضى لصيغة المضارع، للتنبيه على تحقق الوقوع ، وأن ما هو للوقوع كالواقع ، وتستعار صيغة المستقبل للماضى، لاستحضار الصورة العجيبة ، أو حكاية الحال الماضية ، وإن كان العلامة السبكى يرى أنه أشبه بالمجاز المرسل(٣) .

(١) الخصائص ٣/٣٣٢

(٢) المثل السائر ١٧٢

(٣) عروس الأفراح (شروح التلخيص) ٤/١١١

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

٥ — حذف المسند لوقوعه جواباً عند سؤال مقدر :

وقد أورد ابن جنى هذه المسألة فى باب مراعاتهم الأصول تارة ، وإهمالهم إياها أخرى ، وقد مثل لهذا بيت الكتاب :

لِيبك يزيد ، ضارع لخصومة
ومختبـــــــط مما تطيح الطوائح

لأن أول البيت مبنى على إطراح ذكر الفاعل ، وآخره قد عوود فيه الحديث عن الفاعل ، لأن تقديره فيما بعد : ليبكه مختبط مما تطيح الطوائح فدل قوله : ليبك ، على ما أراده من قوله : ليبكه .

ومثل هذا قول الله تعالى : « إن الإنسان خلق هلوعاً » و « خلق الإنسان ضعيفاً » هذا مع قوله سبحانه : « إقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق » وقوله عز وجل : « خلق الإنسان علمه البيان » وأمثاله كثيرة .

ثم قال ابن جنى : ونحو من البيت قول الله تعالى : « فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها إسمه ، يسبح له فيها بالغدو والآصال ، رجال » أى يسبح له فيها رجال(١) .

وابن جنى — هنا — لم يصرح بأن المحذوف جواب عن سؤال سائل مقدر ؛ ولكن المتأخرين لما رأوه يقدر الفعل المبنى للفاعل فى كل من البيت والآية الكريمة ، جعلوه جواباً عن سؤال مقدر ، تقديره فى البيت : من يبكيه ؟ وفى الآية الكريمة تقديره : من يسبح له فيها ؟

(١) عروس الأفراح (شروح التلخيص) ٤ / ١١١

فالحذف — عند الخطيب القزوينى — لابد له من قرينة ، كوقوع الكلام جواباً عن سؤال ، إما محقق ، كقوله تعالى : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ، ليقولن الله » وقوله : « ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء ، فأحيا به الأرض بعد موتها ، ليقولن الله » وأما مقدر نحو :

لِيبك يزيد ضارع لخصومة

وقراءة من قرأ : « يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال » وقوله : كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم » ببناء الفعل للمفعول .

ثم يذكر الخطيب فضل هذا التركيب — وهو بناء الفعل للمفعول — على خلافه — وهو ببناء الفعل للفاعل ونصب يزيد ، من وجوه :

أحدها : أن هذا التركيب يفيد إسناد الفعل إلى الفاعل مرتين ، إجمالا ثم تفصيلا .

والثانى : أن نحو : « يزيد » فيه ركن الجملة ، لا فضلة .

والثالث : أن أوله غير مطمع للسامع فى ذكر الفاعل ؛ فيكون عند ورود ذكره ، كمن تيسرت له غنيمة من حيث لا يحتسب(١) .

٦ — أثر السجع فى النفوس :

لا يعقد ابن جنى للسجع باباً مستقلا ، ولا يتحدث عنه من حيث تعريفه وإنما يأتى حديثه عن السجع عرضا ، من خلال حديثه فى الرد على

(١) الإيضاح ٥١

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

من ادعى على العرب عنايتها بالألفاظ وإغفالها المعانى ؛ وكأنما حديثه عن السجع إنما هو حديث عن المعانى ؛ لا عن الألفاظ ؛ لأن الألفاظ عنده خدم للمعانى ؛ والعناية بالخادم عناية بالمخدوم ؛ فالسجع عند العرب، والتزامها استمراره من بين الأدلة التى تقطع بأنها تعنى بمعانيها قدر عنايتها بالألفاظ وهى كما تعنى بالفاظها ؛ فتصلحها ، وتهذبها ،وتراعيها ، وتلاحظ أحكامها ؛ بالشعر تارة ، وبالخطب أخرى ، وبالأسجاع التى تلتزمها ، وتتكلف استمرارها ، فإن المعانى أقوى عندها ، وأكرم عليها ، وأفخم قدراً ، فى نفوسها ؛ لأن الألفاظ ، لما كانت عنوان معانيها وطريقاً إلى إظهار أغراضها ومراميها ، أصلحوها ، ورتبوها ، وبالغوا فى تحبيرها ، وتحسينها ليكون ذلك أوقع فى السمع ، وأذهب بها ، فى الدلالة على القصد .

فالمثل إذا كان مسجوعاً ، لذ لسامعه ، فحفظه ، فإذا هو حفظه ، كان جديراً باستعماله ، ولو لم يكن مسجوعاً ، لم تأنس النفس به ، ولا أنقت لمستمعه ، وإذا كان كذلك لم تحفظه ، وإذا لم تحفظه ، لم تطالب أنفسها باستعمال ما وضع له ، وجىء به من أجله .

وابن جنى هنا ، يبين لنا القيمة البلاغية للسجع ، وهو تأثيره العجيب فى النفوس فهو يجعلها تتقبل المعانى باستعذاب ، وارتياح لإيقاعه ، لما به من جرس آخذ بمتع يجعل النفوس مشتاقة لما وراءه من المعانى ، والخواطر ، والأفكار .

يقول ابن جنى : قال لنا أبو على يوماً : قال أبو بكر ، إذ لم تفهموا كلامى ، فاحفظوه ، فإنكم إذا حفظتموه . فهمتموه وكذلك الشعر : النفس له أحفظ و . إليه أسرع (١)

(١) الخصائص ١/٢١٦

ومن هنا نفهم السر فى نظم القدماء لبعض العلوم العربية ؛ وذلك لأن نظمها يسهل عليهم حفظها ، وحفظها يؤدى إلى تكرارها على أفهامهم ، وتكرارها على أفهامهم يؤدى إلى فهمها .

على أن ابن جنى لم يبين لنا متى يحسن السجع، ومتى يقبح، وذلك لأنه لم يكن قاصداً فى موضوعه هذا السجع قصداً ، وإنما جاء ذكر السجع دليلا على عناية العرب بمعانيها ، لأنهم انما يلجأون اليه حفاظا على ما وراءه من المعانى .

وبعد : الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى ، وعلى آله وصحبه ، وسلم ؟

حسن إسماعيل عبد الرازق

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المصدر والمراجع

١ — القرآن الكريم

٢ — أثر النحاة فى البحث البلاغى للدكتور عبد القادر حسين

٣ — أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجانى (تعليق أحمد مصطفى المراغى بك)

٤ — أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجانى (تعليق السيد محمد رشيد رضا)

٥ — أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجانى (تحقيق هـ. ريتر)

٦ — إعجاز القرآن ، للخطابى

٧ — الإرشاد ، لياقوت

٨ — الأغانى ، لأبى الفرج الأصفهانى (ط بولاق)

٩ — الأغانى ، لأبى الفرج الإصفهانى (ط الساسى)

١٠ — الأمالى ، لأبى على القالى

١١ — الإيضاح ، للخطيب القزوينى (ط محمد على صبيح ١٣٤٨ هـ)

١٢ — الإيضاح ، للخطيب القزوينى (دار الجيل ببيروت)

١٣ — البديع ، لأسامه بن منقذ (تحقيق د/ أحمد بدوى ، ود/ حامد عبد المجيد)

١٤ — البديع ، لعبد الله بن المعتز (ط كراتشفوفسكى)

١٥ — البرهان فى وجوه البيان ، لابن وهب (تحقيق د/ حفنى شرف)

١٦ — البيان والتبيين ، للجاحظ

١٧ — الحيوان ، للجاحظ

١٨ — الخصائص ، لأبى الفتح عثمان بن جنى (تحقيق الشيخ محمد على النجار)

١٩ — الشعر والشعراء ، لابن قتيبة (الطبعة الأولى)

٢٠ — الشعر والشعراء ، لابن قتيبة (تحقيق أحمد محمد شاكر)

٢١ — الصبح المنبى عن حيثية المتنبى ، للبديعى

٢٢ — الصناعتين ، لأبى هلال العسكرى

٢٣ — العمدة ، لابن رشيق القيروانى

٢٤ — الكامل ، للمبرد (الطبعة الأولى)

٢٥ — الكامل ، للمبرد (مكتبة المعارف ببيروت)

٢٦ الكتاب ، لسيبويه

٢٧ — الكشاف ، للزمخشرى

٢٨ — المثل السائر ، لابن الأثير (ط حجازى ١٣٥٤ هـ)

٢٩ — المثل السائر لابن الأثير (تحقيق د/ الحوفى ، ود/ طبانة)

٣٠ — المجازات النبوية ، للشريف الرضى

٣١ — المختار من شعر بشار

٣٢ — النجوم الزاهرة ، لابن تغرى بردى

٣٣ — النكت فى إعجاز القرآن الكريم ، للرمانى (ضمن ثلاث رسائل فى اعجاز القرآن

٣٤ — الموازنة بين الطائيين ، للآمدى

٣٥ — الموشح فى مآخذ العلماء على الشعراء ، للمرزبانى

٣٦ — الوساطة بين المتنبى وخصومه

٣٧ — إنباه الرواة ، للقفطى

٣٨ — بغية الوعاة ، للسيوطى

٣٩ — تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان

٤٠ — تاريخ الأدب العربى ، لبر وكلمان

٤١ — تاريخ الأمم الإسلامية (الدولة العباسية) للشيخ محمد الخضرى

٤٢ — تاريخ بغداد ، للخطيب

٤٣ — تلخيص البيان فى مجازات القرآن ، للشريف الرضى

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

٤٤ — حاشية الدسوقى (ضمن شروح التلخيص)
٤٥ — خزانة الأدب ، للبغدادى
٤٦ — دلائل الإعجاز ، لعبد القاهر الجرجانى (تعليق السيد محمد رشيد رضا)
٤٧ — دلائل الإعجاز ، لعبد القاهر الجرجانى (تعليق الشيخ أحمد مصطفى المراغى)
٤٨ — دمية القصر ، للباخرزى
٤٩ — ديوان الحماسة ، لأبى تمام
٥٠ — ديوان الفرزدق
٥١ — ديوان ذى الرمة
٥٢ — ديوان المعانى ، لأبى هلال العسكرى
٥٣ — شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، لابن العماد
٥٤ — شرح المختصر ، لسعد الدين التفتازانى
٥٥ — شرح ديوان الحماسه ، للتبريزى
٥٦ شرح ديوان جرير (ط دار الأندلس ببيروت)
٥٧ — شرح عقود الجمان ، للسيوطى
٥٨ — شروح التلخيص
٥٩ — شواهد العينى
٦٠ — شواهد المغنى ، للسيوطى
٦١ — عروس الأفراح للعلامة السبكى
٦٢ — قانون البلاغة ، لابن حيدر البغدادى
٦٣ — لزوم ما لا يلزم ، لأبى العلاء المعرى
٦٤ — لسان العرب ، لابن منظور
٦٥ — مختصر السعد ، للتفتازانى
٦٦ — مرآة الجنان

٦٧ — مسالك الأبصار
٦٨ — معاهد التنصيص ، للعباس
٦٩ — معجم الأدباء ، لياقوت
٧٠ — مفتاح العلوم ، للسكاكى (الطبعة الأولى)
٧١ — مفتاح العلوم ، للسكاكى (دار الكتب العلمية ببيروت)
٧٢ — مواهب الفتاح ، لابن يعقوب المغربى
٧٣ — نقد الشعر ، لقدامة بن جعفر (تحقيق كمال مصطفى)
٧٤ — نقد الشعر ، لقدامة بن جعفر (تحقيق د/ محمد عبد المنعم خفاجى)
٧٥ — وفيات الأعيان ، لابن خلكان
٧٦ — يتيمة الدهر ، للثعالبى

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

(المحتوى)

(أ) المقدمة :

وجوب اهتمام البلاغيين بالخصائص — كتاب الخصائص معين لا ينضب من خصائص النظم — كلام ابن جنى عن الغرض من كتابه — الكتاب يخاطب كل إنسان بما أعتاده — من حجج البلاغية — قول ابن جنى إن فائدة كتابه ليست قاصرة على معرفة قواعد النحو، وإنما تتعدى إلى إثارة المعانى من مكامنها — خصائص النظم جزء من خصائص العربية — تتبع البلاغيين لمعانى النحو فى الخصائص — عدم اهتمامهم بالكتاب الاهتمام الكافى — عدم إشارة ابن الأثير إلى الخصائص على الرغم من نقله الكثير منه — اعتراف الشريف الرضى بفضل ابن جنى — المنهج الذى سلكته فى هذا البحث . [٣ — ٨]

(ب) التمهيد :

أبو الفتح عثمان بن جنى : أصله — نشأته — صحبته لأبى على الفارسى — لقاؤه بأبى الطيب المتنبى — قوله عن المتنبى : شاعرنا — تقدير المتنبى لابن جنى — نماذج من شعره — وفاته — تلاميذه — كتاب «الخصائص» — وصفه من إهدائه لبهاء الدولة بن بويه .

مواطن الإفصاح عن خصائص النظم ، فى كتاب « الخصائص » : إقامة الدليل على صحة القضايا اللغوية — إقامة الدليل على صحة القضايا النحوية — إقامة الدليل على صحة القضايا النقدية — إقامة الدليل على صحة التعبير ببعض الجمل من الناحية العقلية — الإفصاح عن فلسفة العرب فى التعبير — الإفصاح عن مبرر تنوع طرقهم فى التعبير — بيان اختلاف النظم فى الجمل مع جريانها على حسب قوانين النحو — الاستشهاد بخصائص النظم على صحة القضايا اللغوية . [٩ — ٣٤]

خصائص النظم فى خصائص العربية :

١ — من فصاحة الكلام :

(أ) الخلو من ضعف التأليف — ابن جنى له شطر هذا الباب — عامة البلاغيين لا يجيزون عود الضمير على متأخر لفظاً ورتبة ، وابن جنى يجيزه — تفصيل ابن يعقوب المغربى لمسألة الإضمار قبل الذكر .

(ب) الخلو من التعقيد اللفظى: الفروق والفصول التى تؤدى إلى التعقيد اللفظى ، أو المعاظلة عند أبى هلال وابن الأثير — كونها مؤذنة بعلو قدم الشاعر فى الفصاحة عند ابن جنى — درجات القبح بين الفروق والفصول — أمثلة للفصول والتقديم والتأخير — إفادة البلاغيين من هذا الباب — إفادة القاضى الجرجانى — إفادة الخطيب — تخطئة أبى هلال لقدامة فى المعاظلة إلمام ابن الأثير بما قاله أبو هلال ، وابن جنى — هذا الضرب من الكلام ضد الفصاحة — ما يؤخذ من هذا الفصل . [٣٥ — ٥٤]

٢ — الألفاظ والمعانى :

عناية العرب بالألفاظ عناية بالمعانى — مظاهر هذه العناية — الألفاظ أوعية للمعانى ، وخدم لها — من المعانى ما يهجنه سوء التعبير عنه — تأثر ابن جنى بابن قتيبه فى هذا — رده على ابن قتيبة — الاستشهاد بقول النبى — ﷺ — : (إن من البيان لسحراً) — إفادة عبد القاهر من رد ابن جنى، فى الأسرار ، والدلائل — موازنة بين رد ابن جنى ، ورد عبد القاهر — إفادة السكاكى من هذا الرد بتقسيم الكناية إلى تعريض ، وتلويح، ورمز ، وإيماء أو إشارة — نقل ابن الأثير ما قاله ابن جنى عن أطراف الأحاديث .
[٥٥ — ٦٦]

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

٣ — قوة اللفظ لقوة المعنى :

تنبيه ابن الأثير ، إلى جدواه فى الدراسات البلاغية — اعتماد ابن الأثير على كل ما قاله ابن جنى — شمول هذا الباب لأمرين : قوة اللفظ لقوة المعنى ، وتكثير اللفظ لتكثير المعنى — ما جاء منه فى القرآن الكريم — ما جاء منه فى الشعر العربى — ما يلحق بتكثير اللفظ لتكثير المعنى — سر هذا الباب — إفادة ابن الأثير من هذا الباب — مانبه عليه ابن الأثير — لا يوجد هذا الباب إلا فيما فيه معنى الفعلية — قد يستعمل هذا الباب للمبالغة فينعكس المعنى فيه إلى ضده — ورود كلمة تحتمل التضعيف وغيره — قوة اللفظ لقوة المعنى لا تستقيم إلا فى نقل صيغة إلى أخرى أكثر منها .

[٦٧ — ٧٢]

٤ — الإيجاز والإطناب :

أصل الكلام أن يكون مفيداً مستقلا بنفسه — جاء فى أشعارهم وصف الحديث بالإطناب ، كما جاء مايدل على وصفهم له بغاية الإيجاز — كما جاء مايدل على وصفهم له بأنه وسط بينهما — لم يذكر ابن جنى المساواة التى نجدها عند ابن رشيق — يمكن أن يضم الى الأطناب باب الاعتراض ، وباب الاحتياط ، بما فيه من التأكيد اللفظى ، والمعنوى ، والتأكيد بالصفة — يضم الى الإيجاز : الحذف — شرطه عند ابن جنى — اطلاق ابن جنى عليه : شجاعة العربية — أنواع الحذف : حذف الجملة — حذف الجملة فى الإنشاء : جملة القسم — جملة الأمر — جملة النهى — جملة التخصيص — حذف الجملة فى الخبر : جملة الفعل والفاعل جملتا الشرط والجواب — جملة المعطوف والمعطوف عليه — حذف المفرد — حذف المبتدأ — حذف الخبر — حذف المضاف — حذف المضاف مكررا — حذف المضاف اليه — حذف الموصوف — مر كثرته فى الشعر دون النثر — قيام الصفة

وهى جملة مقام الموصوف المبتدأ ، حذف الصفة ، حذف المفعول ، حذف الظرف ، حذف المعطوف ، حذف المعطوف عليه ، حذف المستثنى ، حذف خبران مع النكرة ، حذف أحد مفعولى ظننت ، حذف خبر كان ، حذف المنادى ، حذف التمييز ، حذف الفعل ، حذف الحرف ، افادة البلاغيين من موضوع الحذف ، افادة أبى هلال العسكرى ، افادة عبد القاهر ، افادة ابن الأثير ، نقل ابن الأثير لموضوع حذف المفعول من دلائل الإعجاز ، نقل ابن الأثير لنص كلام ابن جنى دون اشارة اليه ، افادة الخطيب من ابن جنى فى موضوع الحذف .

[٧٣ — ٩٥]

الإطناب بالاعتراض : الاعتراض كثير فى كلام العرب وفائدته التأكيد ، أنواع الاعتراض : الاعتراض بين الفعل وفاعله ، الاعتراض بين الفعل ومفعوله ، بين المفعول الأول والثانى ، بين المبتدأ والخبر ، بين اسم أن وخبرها ، بين القسم وجوابه ، شرط الجملة أو الجملة المعترضة ألا يكون لها محل من الأعراب ، الاعتراض يدل على فصاحة المتكلم وقوة نفسه وامتداد نفسه ، تصورنا للاعتراض عند ابن جنى ، افادة البلاغيين من هذا الباب ، نقل ابن الأثير من ابن جنى فى الاعتراض .

[٩٦ — ١٠٢]

٥ — التشبيه :

يمكن فهمه عند ابن جنى من أبواب : اصلاح اللفظ ، واستخلاص معانى الأوصاف من الأعلام ، وغلبة الفروع على الأصول — سر قوة التشبيه بأدانه (كأن) — افادة عبد القاهر من تلك المسألة ، التشبيه البليغ ، فهمه من استخلاص معانى الأوصاف من الأعلام مثل قول الشاعر (أنا أبو المنهال) ، افادة الخطيب من انتزاع معنى الصفة من العلم — التشبيه المقلوب ، اذا شبهت العرب مكنت للشبه بين المشبه والمشبه به بإعطاء المشبه به شيئاً

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

من المشبه ـ افادة عبد القاهر من هذا الباب ـ ابن الأثير ينقل ما قاله ابن جنى فى غلبة الفروع على الأصول ، ويسميه « الطرد والعكس » ، ابن الأثير لا يعترف لابن جنى بالفضل ـ السبكى يصرح بأن ابن الأثير فى كتاب البلاغة يسميه غلبة الفروع على الأصول وهى نفس تسميه ابن جنى ـ رأى الخطيب القزوينى فى التشبيه المقلوب . [١٠٣ — ١١٨]

التجريد : أول من نبه اليه هو ابن جنى نقلا عن أبى على الفارسى ، أمثلته ـ مايفهم من كلام ابن جنى عن التجريد ، يمكن تقسيم أمثلته الى قسمين ، مخاطبة الإنسان نفسه ـ مالم يتضمن ذلك ، والذى لم يتضمن مخاطبة الإنسان نفسه : منه ماهو قائم على التشبيه ، ومنه ما لايقوم على التشبيه ، ـ القائم على التشبيه . عند عبد القاهر ، تشبيه على حد المبالغة ، عبد القاهر يعد التجريد القائم على التشبيه مرحلة زادت فيها المبالغة فى التشبيه البليغ ـ تعريف الخطيب له ، ابن الأثير يتشبه بابن جنى فى عرض التجريد ، ابن الأثير يعرف التجريد تعريفا لم يسمع عند غـــيره ، ابن الأثير نقل مانسبه الى أبى على الفارسى من الخصائص ـ الدليل على ذلك ، ابن الأثير يغير عبارة ابن جنى ، ليتسنى له الرد على أبى على الفارسى ، رد ابن الأثير على أبى على الفارس ، ردنا على ابن الأثير . [١١٨ — ١٢٨]

٦ ـ المعانى المجازية للاستفهام :

الأبواب التى تضمنت المعانى المجازية للاستفهام ، التحقيق ، التقرير ، الإنكار ، افادة عبدالقاهر من هذا الموضوع وجمعه بين التقرير والإنكار ، كلام العلامة الدسوقى ، تجاهل العارف ، أغراض الاستفهام عند ابن جنى ، التعجب . [١٢٩ — ١٣٧]

٧ ـ نفى الشىء بإيجابه :

خلافهم فى معنى قولهم ، (هذا أمر لا يشادى وليـــده) ـ وجه اضافة

الأشياء الى ما لا ملابسة بينها وبينه ـ موقف البلاغيين من هذا الباب ، ابن رشيق يسميه نفى الشىء بإيجابه ، ويتابعه ابن أبى الأصبع ، والسيوطى ، ابن الأثير يسميه عكس الظاهر ويعرفه بعنوان ابن رشيق ، مع التسمة عنده ، ابن الأثير يميل به الى المعانى ، لا وجود لهذا النوع عند الخطيب مع تعدد أمثلته عند ابن رشيق ، سبب ندرته عند ابن الأثير . [١٣٨ — ١٤٢]

٨ ـ الدلالات اللفظية ، والصناعية والمعنوية :

حديث ابن جنى عن الدلالة يختلف عما قبله ـ مراتب الدلالات عنده ، الألفاظ أدلة على إثبات معانيها ـ الدلالة العقلية لاحقة بعلوم الإستدلال ـ تفريق عبد القاهر بين الدلالتين : اللفظية والعقلية [١٤٣ — ١٤٦]

٩ ـ الحقيقة والمجاز اللغويان :

تعريفهما عند ابن جنى ـ رد الإمام عبد القاهر هذا التعريف ـ زيادة عبد القاهر فى التعريف ماسمى عند المتأخرين باسم العلاقة ـ تعريف الخطيب ـ الفرق بين الحقيقة والمجاز ، اشتراط ابن جنى وجود القرينة ـ كلام ابن جنى على قول النبى ﷺ فى الفرس : (إنه بحر) إفادة المتأخرين فى ادعائهم دخول المشبه فى جنس المشبه به ـ إطلاق ابن جنى إسم الاستعارة على ما كان مجازاً مرسلا . [١٤٧ — ١٥٢]

المجاز المرسل :

الباب الذى أسماه ابن جنى : الإكتفاء بالسبب عن المسبب ، وبالمسبب عن السبب هو ما أسماه المتأخرون مجازاً مرسلا ـ أمثلته ـ نقل الخطيب منه علاقتى السببية والمسببية ، وتسمية الشىء باسم ما يؤول إليه ـ نقل ابن الأثير هذا الباب إلى حذف الجمل ، ما يؤخذ من هذا الموضوع عند

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ابن جنى ؛ إفادة البلاغيين من هذا الباب « تفريق الشريف الرضى بين قسمى المجاز اللغوى ، إلمام ابن رشيق بما قاله بن جنى، وما قاله الشريف الرضى إفادة عبد القاهر من ابن جنى والشريف الرضى — تسمية المتأخرين ،لهذا النوع من المجاز مأخوذ من كلام عبد القاهر ، تعريف الخطيب مأخوذ من نوع العلاقة — علاقة المجاز المرسل عند الخطيب [١٥٣ — ١٦١]

المجاز العقلى :

فهم المجاز العقلى من أمثلة ابن جنى — اهتداء عبد القاهر بابن جنى فى الفرق بين المجاز العقلى والمجاز اللغوى — تفريق عبد القاهر بينهما — إسناد الفعل إلى مصدره . سر المبالغة فى وصف الفعل بالمصدر .

[١٦٢ — ١٦٦]

المجاز بالحذف والزيادة :

قولهم : (بنو فلان يطؤهم الطريق) ينحو به ابن جنى الى الاستعارة بالكناية .

قوله تعالى : « واسأل القرية — اهتمام عبد القاهر بالمجاز الذى يأتى عن طريق الحذف ، أو عن طريق الزيادة — لا يسمى واحد من الحذف ، أو الزيادة مجازاً إلا إذا أدى إلى تغيير حكم إعرابى — إفادة ابن الأثير من ابن جنى فى تقسيم المجاز — اختلاط الأمر على ابن الأثير فى تقسيمات المجاز، إذ يجعل التوسع فى الكلام قسما ، كما يجعل التشبيه قسما آخر ، نقد ابن الأثير لتقسيم ابن جنى للمجاز — ردنا على ابن الأثير — شيوع المجاز فى اللغة العربية .

[١٦٧ — ١٧٧]

١٠ — لزوم ما لا يلزم : التطوع بما لا يلزم فى الشعر . التزام الشاعر بالحرف الذى قبل الروى . التزامه بحرفين قبل الروى . التزامه تشديد حرف

الروى . التزامه تصغير القوافى . التزامه بلام التعريف فى آخر مصراع كل بيت . التطوع بما لا يلزم فى غير الشعر . التطوع بما لا يلزم من إجابة السؤال . التطوع المشام للتوكيد . التطوع بالحال المؤكدة . إفادة البلاغيين من هذا الباب . إفادة ابن حيدر ، إفادة أبى العلاء المعرى، افادة ابن الأثير ، نقل ابن الأثير شطراً من هذا الباب .

[١٧٨ — ١٨٩]

١١ — مسائل متفرقة :

١ — القصر فى تقديم النكرة على الفعل . افادة عبد القاهر من هذه المسألة .

٢ — الكناية بلفظ (المثل) بلاغة الكناية بلفظ مثل . افادة عبدالقاهر من هذه المسألة . افاده ابن الأثير ، ونقله من غير أشارة الى ابن جنى . افادة الخطيب .

٣ — من صور الالتفات: الالتفات من الخطاب الى الغيبة. أصغر الناس قدراً قد يخاطب أكبر الملوك محلا بالكاف من غير احتشام منه ولا انكار عليه الكناية بلفظ الغيبة تجانفا من ذكر أسماء الملوك وابتذالها — لما خلصت الكاف للخطاب وعريت عن دلالتها استعملت فى خطاب الملوك — افادة ابن الأثير من هذه المسألة. نقد ابن الأثير ، ثم تراجعه لأنه وجد أن مخاطبة الملوك بكاف الخطاب انما تعاب فى الكناية اذا كان المخاطب دون المخاطب، ولا تعاب فى الشعر .

٤ — التعبير عن المستقبل بلفظ الماضى وعكسه ، فائدة الأول تحقق الوقوع ، والثانى حكاية الحال الماضية ، ابن الأثير يضع هذا النوع فى الالتفات ، وسماه : الإخبار عن الفعل الماضى بالمستقبل وعن المستقبل بالماضى ، وتابعه العلامة صاحب الطراز ، المتأخرون يضعونه فى الاستعارة التبعية فى الفعل .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

٥ — حذف المسند لوقوعه جوابا عن سؤال مقدر :

أفادة الخطيب « وبيانه لمزية بناء الفعل للمفعول على بنائه للفاعل فى قول الشاعر : (ليبك يزيد ، ضارع لخصومة) .

٦ — أثر السجع فى النفوس ـ السجع دليل على عناية العرب بالمعانى، لمثل اذا كان مسجوعا لذلسامعه ، فحفظه ، فإذا حفظه كان جديراً باستعماله .

من هنا نفهم سر نظم القدماء لبعض العلوم العربية ـ لم يبين لنا ابن جنى متى يحسن السجع ، ومتى يقبح ، لأنه لم يكن موضوعه هذا ، وانما كان يقيم الدليل على عناية العرب بمعانيها .

المصادر و المراجع [١٩٠ — ٢٠٧]
[٢٠٨ — ٢١١]